موقف الحافظ ابن أبي جمرة من التصوف

إعداد

الدكتور / عبدالرؤف محمود عبدالرؤف

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذي بيده الأمر وهو على كل شيء قدير . والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد

فهذا بحث يتناول الحديث عن شخصية لها مكانتها في الفكر الإسلامي خاصة فيما يتعلق بعلم الحديث . فالحافظ ابن أبي جمرة من أوائل من تناولوا صحيح الإمام البخاري بالاختصار والشرح ، حتى صار مختصره مقصد الطلاب وغيرهم فشاع وانتشر بين الناس ، واعتمد عليه كثير ممن جاءوا بعده فشرحوا صحيح البخاري . وقد أكثر الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني من النقول عن الحافظ ابن أبي جمرة في كتابه فتح الباري .

وهذا البحث يتناول بصورة دقيقة جزءا من فكر الإمام الحافظ ابن أبي جمرة وهو موقفه من التصوف في الإسلام . فعلى الرغم من أنه لم يفرد كتابا أو يضع حاشية على كتاب في التصوف إلا أنه بعد البحث والدراسة وجدت أن للحافظ ابن أبي جمرة آراء في التصوف الإسلامي منتشرة في ثنايا كتابه (بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها) - وهو الكتاب الذي اختصر به صحيح الإمام البخاري وقام بشرحه - مجملة أحيانا ومفصلة أحيانا أخرى .

وترجع أهمية هذا البحث في جمع شتات الكثير من المعلومات المتناثرة والتي تحتاج إلى ترتيب في كتب الحافظ ابن أبي جمرة . ووضعها في مكان واحد لسهولة

التعرف على فكر هذا العالم الجليل في مسائل لطالما حدث حول بعضها اختلاف واتهامات لقائليها بمخالفة السنة .

فكان من الواجب بيان رأي العلماء ممن تعلقوا بالسنة وشهد لهم أهل العلم في زمانهم بالتبحر في العلم والعمل معا على موافقة الكتاب والسنة .

فكان هذا البحث الذي أسأل الله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

وقد قسمت البحث لعدد من المسائل سوف أتناولها على النحو التالي :

المبحث الأول : التعريف بمفردات البحث .

المبحث الثاني: موقف الحافظ ابن أبي جمرة من أدعياء التصوف .

المبحث الثالث : موقف الحافظ ابن أبي جمرة من التصوف القائم على الكتاب والسنة .

أسأل الله تعالى العون والتوفيق والرشاد

المبحث الأول
التعريف بمفردات البحث

أولا : التعريف بالحافظ ابن أبي جمرة

أبو محمد عبدالله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي [١] أنصاري خزرجي من ذرية سيد الخزرج سعد بن عبادة[٢]، وهو من بيت كبير بالمغرب ، كان عالما عابدا خيرا شهير الذكر [٣] ، ذا تمسك بالأثر واعتناء بالعلم وآله[٤]، نزل مصر واشتغل بعلم الحديث وصار من علمائه وكان مالكي المذهب . [٥]

من كتبه : (جمع النهاية اختصر به صحيح البخاري ، وكتاب بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها ، وكتاب المرائي الحسان) [٦].

و العنوان الأصلي الذي وضعه الحافظ ابن أبي جمرة للكتاب الأول هو : (جمع النهاية في بدء الخير والغاية) ذكر فيه: أنه اتخذ من البخاري ثلاثمائة حديث وبضعاً، بحذف الأسانيد ما عدا راوي الحديث، ليسهل حفظها[٧].

---

(١) الزركلي : الأعلام جـ ٤ ص ٨٩ . دار العلم للملايين –بيروت–لبنانط ١٥/ ٢٠٠٢م .

(٢) انظر : الشيخ الشنواني : حاشية على مختصر ابن أبي جمرة ص ٨ . مصطفى البابي الحلبي– القاهرة ١٩٢٠ م

(٣) الحافظ ابن حجر : تبصير المنتبه بتحرير المشتبه . جـ ١ ص ٤٥٧ .تحقيق : محمد علي النجار –علي محمد البجاوي . دارالكتب العلمية .بيروت– لبنان .

(٤) ابن الملقن : طبقات الأولياء ص ٤٣٩ . تحقيق نور الدين شريبة . مكتبة الخانجي–القاهرة ط ٤ ١٤١٥هـ. ١٩٩٤ م .

(٥) الأعلام جـ ٤ ص ٨٩ .

(٦) المرجع السابق نفسه .

(٧) حاجي خليفة : كشف الظنون جـ ١ص ٥٩٩ . مكتبة المثنى –بغداد . ١٩٤١م .

وقد اعتنى بشرح الكتاب الأول عدد من العلماء منهم : الشيخ : شهاب الدين أحمد بن محمد السجاعي (١١٩٧هـ - ١٧٨٣م)تحت مسمى (النور الساري على متن مختصر البخاري لابن أبي جمرة) [١]، والشيخ محمد الشنواني شيخ الأزهر له حاشية على مختصر ابن أبي جمرة ، طبعت في مطبعة مصطفى البابي الحلبي عام ١٩٢٠م .والشيخ يحيى بن محمد المسالخي (١٢٢٥ هـ - ١٨١٠ م) له شرح للمختصر أيضا [٢].

وقد شرح الحافظ هذا المختصر في كتابه (بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها) . طبع في مطبعة الصدق الخيرية مصر في مجلدين وقد حقق الأصل المخطوط ونسخه الشيخ إسماعيل بن عبدالله المغربي الصاوي ، والشيخ الهادي عبدالقادر التونسي، والشيخ عبدالصمد الحسيني السنان الأزهري ، وفي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٢ ونشرته دار الجيل ببيروت دون تحقيق .

وفي مضمون هذا الكتاب يقول الحافظ : (هذا الكتاب يحتوي على جمل من درر فرائض الشريعة وسننها ورغائبها وآدابها وأحكامها والإشارة الى الحقيقة بحقيقتها ، و الإشارة الى كيفية الجمع بين الحقيقة والشريعة وتبيين الطرق الناجية التي أشار (عليه السلام) إليها ، والإشارة الى بيان أضدادها والتحذير عنها ،

---

(١) عمر كحالة : معجم المؤلفين جـ ١ ص ١٥٤ .الناشر مكتبة المثنى - دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٢) معجم المؤلفين جـ ١٣ ص ٢٢٨ .

وربما استدللت على بعض الوجوه التي ظهرت من الحديث بآيات وبأحاديث تناسبها وتقويها فمنها باللفظ ومنها بالمعنى ، وأتبعت ذلك بحكايات ليشحذ الفهم وليتبين بها المعنى وربما أشرت في بعض المواضع الى شيء من توبيخ النفس على غفلتها لعلها تنتهي عن غيها ، وأودعت فيه شيئا من بيان طريق الصحابة وآدابها ، وما يستنبط من حسن عباراتهم وتحرزهم في نقلهم ، وحسن مخاطبتهم ، وما يستنبط من ذلك من آداب الشريعة إذا تعرض لفظ الحديث لشيء من ذلك)[1].وله من المؤلفات أيضا : (شرح حديث : (عبادة بن الصامت) أفرده بالتدوين بعد أن أودعه في كتابه : (بهجة النفوس) وهو : قوله – عليه الصلاة والسلام – : (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ..) أوله : (الحمد لله الذي أطلع من السماء لفظ خير بريته شموسا ... الخ) وله : شرح (لحديث الإفك) أفرده بعد ذكره فيه أوله : (الحمد لله الذي أظهر بمقتضى التنزيل تطهير من قد اختاره ... الخ) وله شرح : (حديث الإسراء)أوله : (الحمد لله الذي أظهر من سر قدرته بخرق عاداته ... الخ) أفرده بالتدوين بعد أن ذكره في كتابه : (بهجة النفوس)[2].

ومن تلاميذه : محمد بن الحاج صاحب كتاب المدخل[3].

---

(١) الحافظ ابن أبي جمرة : بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها جـ ١ ص ٤ دار الجيل . بيروت –لبنان .

(٢) كشف الظنون جـ ٢ص ١٠٤٠ .

(٣) محمد بن محمد بن محمد بن الحاج أبو عبدالله العبدري الفارسي نزيل مصر ، لزم الشيخ أبا محمد بن أبي جمرة فعادت عليه بركاته وصار ملحوظا بالمشيخة والجلالة بمصر . ومات في سنة ٧٣٧هـ =

وعن وفاته قال ابن الملقن : (مات في تاسع عشر من ذي القعدة سنة ٦٧٥هـ ، وقد شاخ ودفن بالقرافة – بمصر – وقبره معروف يتبرك به)[١]. و قال الزركلي في الأعلام أنه توفي سنة (٦٩٥هـ ، ١٢٩٦م)[٢].

ثانياً : اشتقاق لفظ التصوف وتعريفه .

اختلف العلماء في لفظ التصوف من حيث الاشتقاق والجمود ،فالإمام القشيري يرى أن كلمة " تصوف " غير مشتقة وأن الاشتقاقات لا تشهد لها فيقول : (ثم هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي ، وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة المتصوفة . وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر أنه كاللقب)[٣].

ثم اختلف القائلون بالاشتقاق في مصدره اللغوي والمعنوي ، فأرجعه بعضهم في أصل اشتقاقه الى (الصوف) ، أو إلى (أهل الصفة من الصحابة الذين

= وقد بلغ الثمانين أو جاوزها . انظر : الحافظ ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة جـ ٥ ص ٥٠٧ . تحقيق محمد عبدالمعيدضان .الناشر : مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر أباد –الهند . ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م .

(١) طبقات الأولياء ص ٤٣٩ .

(٢) الأعلام جـ ٤ ص ٨٩ . وانظر : الإمام السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة جـ ١ ص ٥٢٣ . ط ١ دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي الحلبي –القاهرة .

(٣) الإمام القشيري : الرسالة القشيرية ص ٤٦٤ . تحقيق الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / عبدالحليم محمود ، الدكتور محمود بن الشريف . مؤسسة دار الشعب ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

كانوا يعيشون في المسجد النبوي لا يفارقوه) ، أو إلى (سوفيا التي تعني الحكمة باليونانية) ، أو إلى (الصف الأول لكونهم فيه بين يدي الله عز وجل) أو إلى (الصفاء) [١] . فيقول الإمام الكلاباذي في كتابه التعرف تحت عنوان : (لم سميت الصوفية صوفية ؟ قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها [٢]. وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . وقال قوم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾. وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف، وأما نسبهم إلى الصفة والصوف فقد عبر عن ظاهر أحوالهم) [٣].

وهذا يعني أن التصوف له اشتقاق إجمالا . الأول من جهة ظاهر الحال وفيه يشتق التصوف من النسبة لأهل الصفة أو للبس الصوف .

والاشتقاق الثاني من جهة الأحوال وفيه يستمد التصوف اشتقاقه من الصفاء أو من الصف الأول .وقد وجد هذا المعنى عند الإمام بشر بن الحارث الحافي (٢٢٧هـ) حيث قال : (الصوفي من صفا قلبه لله)[٤] .

---

(١) انظر بالتفصيل : ا.د / فتحي الزغبي : دراسات في التصوف الإسلامي جـ ١ ص ١-٦٢ . نشر مكتب الأشو للطباعة . طنطا –مصر . ط ١ ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م .

(٢) فالتصوف مشتق من الصفاء على هذا المعنى .

(٣) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٥ بتصرف يسير . تحقيق أرثر جون أربري . مكتبة الخانجي– القاهرة ط ٢ ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م .

(٤) التعرف ص ٥ .

وأما التصوف في الاصطلاح فله تعريفات عدة وصلت إلى أكثر من مائة تعريف ، وذلك يرجع إلى أن كل من تناول التصوف بالتعريف يحكي عن تجربته ونظرته الخاصة به وحده ، فهذا ينظر إلى التصوف على أساس أنه زهد ، والآخر ينظر إليه على أساس أنه خلق ، وغيرهما ينظر إليه على أساس أنه عبادة .

وقد عرفه الإمام الجنيد (٢٩٧ هـ) : التصوف مبني على ثمان خصال السخاء ، والرضا ، والصبر ، والإيثار ، والغربة ، ولبس الصوف ، والسياحة ، والفقر . وقال أيضا : التصوف : أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به .

وقال أبو بكر الكتاني (٣٢٢هـ): التصوف صفاء ومشاهدة [١].

ويرى الإمام الأكبر الدكتور / عبدالحليم محمود أن تعريف الإمام الكتاني هو التعريف الراجح للتصوف فيقول : (إذا نظرنا الى تعريف الكتاني فإننا نجد عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللذان فيما نرى يكونان في وحدة متكاملة تعريف التصوف . أحدهما :وسيلة ، والثاني : غاية أما الوسيلة فهي الصفاء ، وأما الغاية فهي : المشاهدة . والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية)[٢].

وهذا التعريف الأخير هو الذي ارتضاه الحافظ ابن أبي جمرة للتصوف ، فهو يرى أن لفظ التصوف مشتق وليس جامدا ، وأن مصدر اشتقاقه الصفاء

---

(١) انظر : الإمام الأكبر الدكتور / عبدالحليم محمود : قضية التصوف :مقدمة كتاب المنقذ من الضلال . ص ٣٨ –٤٧ .دارالمعارفالطبعةالثالثة .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

فيقول:(فلما صفت بواطنهم تسموا باسم الصوفة وهو مشتق من الصفاء) [١].

الأسماء الدالة على الصوفية عند الحافظ ابن أبي جمرة

رغم أن الحافظ ابن أبي جمرة يرى اشتقاق التصوف من الصفاء إلا أنه قد استخدم أسماء كثيرة في الدلالة على أهل التصوف ، وقد استخدم كل اسم في موضعه للدلالة على المراد منه فميز بهذه الأسماء بين الصادقين وأحوالهم وبين الأدعياء . فاستخدم للصنف الأول أربعة ألقاب وهي :

١ – أهل الصفة [٢] .
٢ – أهل الصوفة [٣] .
٣ – أهل السلوك [٤] .
٤ – المتصوفة [٥].

واستخدم للأدعياء لقب " المتصوفة والمنتسبون للمتصوفة " .

(١) بهجة النفوس جـ ١ ص ١٢ .وانظرجـ ١ ص ١٣٦ .
(٢) نفسه جـ ١ ص ٢٤ .
(٣) نفسه جـ ١ ص ١٢ .
(٤) نفسه جـ ١ ص ٧٦ .
(٥) نفسه جـ ١ ص ١٩ .

المبحـــث الثانـــي
موقف الحافظ ابن أبي جمرة من أدعياء التصوف

تمهيـــد

فرق الحافظ ابن أبي جمرة بين نوعين من الصوفية في نسبتهم للصدق في التصوف من عدمه ، فنسب الصادقين للصفاء وسماهم بأهل الصفة والصوفية وأهل السلوك –كما تقدم– .

أما النوع الآخر فيراه الحافظ ابن أبي جمرة منتسبا للتصوف وليس من أهله فهم أهل دعاوى غير حقيقية .

وقد عاب الحافظ في كلامه على المنتسبين للتصوف عددا من المسائل ثم بين وجه الحق فيها .وهي :

١ - العبادة لأجل ظهور الكرامة .

تمثل العبادة في الإسلام الغاية التي خلق الإنسان لها ، بل وكل المخلوقات كذلك ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾الذاريات: ٥٦) والله تعالى أحق بأن يعبد لأنه وحده رب السماوات والأرض ، فلا إله إلا هو سبحانه، وأمر الله سبحانه الرسل ببلاغ ذلك لأقوامهم فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾الأنبياء: ٢٥) .

وقد اهتم الصوفية بالعبادة اهتماما كبيرا على اعتبار أنها الطريق الوحيد الموصل لله سبحانه وتعالى ، مؤكدين على أنه لابد أن تخلو العبادة لله تعالى من كل حظ ، وأن يحفظ العابد فيها نفسه من كل شَرَك قد يعيقه عن الوصول لله سبحانه وتعالى وعن الإخلاص التام .

ومن هذه الأمور انتظار الأجر بعد العمل ، والجزاء بعد العبادة مباشرة بأن يرى العبد ذلك لنفسه عاجلا ، وهذا خطأ يخرج عن الإخلاص في العبادة ، بل جعله السراج الطوسي مخرجا عن مجمل تحقيق العبودية التام لله سبحانه وتعالى ، فيقول في كتابه اللمع: (تكلم قوم من المتقدمين في معنى الحرية والعبودية على معنى: أن العبد لا ينبغي أن يكون في الأحوال ، والمقامات التي بينه وبين الله تعالى كالأحرار ، لأن من عادة الأحرار طلب الأجرة ، وانتظار العوض على ما يعملون من الأعمال ، وليست عادة العبيد كذلك ؛ لأن العبد لا ينتظر من مولاه أجرة ولا عوضا على ما يأمره به مولاه ، فمتى طمع في شيء من ذلك فقد ترك سمة العبيد ؛ لأن العبيد إن أعطاهم مولاهم عطية على ما أمرهم به ، واستعملهم فيه كان ذلك من تفضل مولاهم عليهم لا باستحقاقهم) [1]

ولقد وصف الحافظ ابن أبي جمرة أصحاب هذه الأفعال بالجهل مفرقا بين السالكين الفضلاء وبين هؤلاء ، فيقول عند شرحه لحديث (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) [2] : (هنا إشارة صوفية لأن الجهاد عندهم هو

---

(١) انظر : السراج الطوسي : اللمع ص ٥٣١ . تحقيق : الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / عبدالحليم محمود ، طه عبدالباقي سرور . دار الكتب الحديثة بمصر .مكتبة المثنى ببغداد . ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م .

(٢) أخرجه الإمام البخاري . كتاب الجهاد . باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا جـ ٣ ص ١٠٣٤ .تحقيق : د. مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير ، اليمامة –بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ– ١٩٨٧ م .

الجهاد الأكبر ، كما أخبر ﷺ في غير هذا الحديث حين رجع من الجهاد فقال للصحابة : " هبطتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " [١] ، والجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، فتكون مجاهدتهم لها لأن تكون كلمة الله هي العليا ، كما أخبر عز وجل على لسان نبيه ﷺ: (لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها)[٢] هذا هو طريق السادة الفضلاء منهم . وأما الذي يقول أهل الجهل : نواصل ونجاهد حتى نرى شيئا من خرق العادات والكرامات فأولئك عندهم جهال ، ومنهم من قال : إنهم يدخلون تحت قول الله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾[الحج: ١١] [٣].

وفي نفس المعنى ينقل الشيخ عبدالقادر الجيلاني قول بعضهم : (عباد الله عز وجل الذين تحققت عبوديتهم له لا يطلبون منه دنيا ولا آخرة ، وإنما يطلبون منه هو لا غيره) [٤] .

---

(١) أخرجه البيهقي في كتاب الزهد الكبير عن جابر ﷺ بلفظ قريب من لفظ الحديث . وقال : هذا إسناد فيه ضعف . الزهد الكبير للبيهقي ص ١٦٥. تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت –لبنان .ط١ ١٤٠٨هـ– ١٩٨٧م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ في كتاب الرقاق . باب التواضع . جـ ٥ ص ٢٣٨٤.

(٣) انظر : بهجة النفوس جـ١ ص ١٥١ .

(٤) انظر : الشيخ عبدالقادر الجيلاني : الفتح الرباني ص ٧٠–٧١ . قدم له : خليل الميسي . دار الريان للتراث .

٢ - ترك العلم الشرعي وادعاء العلم اللدني .

العلم إما أن يكون مكتسبا بالتعلم ومجالسة المشايخ وقراءة الكتب والاطلاع ،أو يكون علما لدنيا ، وهو ذلك العلم الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده دون اكتساب ، وسمي باللدني لأنه من لدن الله تعالى . قال سبحانه في حق العبد الصالح :﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾الكهف: ٦٥) .وهذا التقسيم اهتم به الصوفية وبينوه ووضعوا له الفوارق الشارحة لكل قسم .يقول الشيخ زروق (٨٩٩هـ) : (العلم إما أن يفيد بحثا على الطلب وحثا عليه ، وإما أن يفيد كيفية العلم ووجهه ، وإما أن يفيد أمرا وراء ذلك خبريا يُهدى إليه . فالأول من علوم القوم : علم الوعظ والتذكير ، والثاني : علم المعاملات والعبودية ، والثالث : علم المكاشفة) [١].(ولا علم إلا بتعليم من الشارع أو من ناب منابه إنابة ، وما تفيده العبادة والتقوى ، إنما هو فهم يوافق الأصول ويشرح الصدور ، ويوسع العقول) [٢].

والعلوم جميعها عند الصوفية لابد وأن توصل الى الله تعالى ومعرفته حق معرفته ، يقول الشيخ ابن عجيبة (١٢٢٥هـ) : (العلوم ثلاثة : علم يتعلق بإظهار الظاهر ويسمى : علم الشريعة وعلم الحكمة ، وعلم يتعلق بإصلاح الباطن ، ويسمى علم التصوف وعلم الطريق ، وهما كسبيان ، وعلم موهوب ، ويسمى علم الحقيقة ، وهو الثمرة والغاية ، فكل علم لا يوصل صاحبه لعلم الحقيقة فهو ناقص

(١) الشيخ زروق الفاسي : قواعد التصوف ص ٦٠ . تحقيق : عبدالمجيد خيالي . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنان ط٢ ١٤٢١هـ . ٢٠٠٥م .

(٢) قواعد التصوف ص ٣١ بتصرف .

، إذ ثمرة العلم العمل ، وثمرة العمل الحال ، وثمرة الحال الذوق والوجدان ، وهو نهاية العرفان ، ولابد من شيخ مرب ينقل المريد من علم الشريعة إلى علم الطريقة مع تحقيق الشريعة)[1] .

فادعاء العلم اللدني لابد أن يكون بعد التحقق بالعلم الشرعي ، فالترتيب الذي ذكره الشيخ ابن عجيبة مقصود ، وهو ما نادى به المحققون من أهل التصوف جميعا .

أما ادعاء عكس ذلك فهو جهل واضح على حد تعبير الحافظ ابن أبي جمرة الذي يقول :(ثم بقي بحث مع بعض المنتسبين للمتصوفة حيث يأتون بألفاظ يدعونها فمنها قولهم بالعلم اللدني ويؤثرونه على علم الشرع المنقول ، ويقولون : إنهم أخذو بغير واسطة وغيرهم أخذ بالواسطة ، وهذا منهم جهل وخطأ لا شك فيه ولا خفاء) [2].

ثم يوضح الحافظ ابن أبي جمرة ما يجب تحققه في العلم اللدني حتى يصح التفريق فيه بين الصادق والدعي ، فهناك شروط لابد من توافرها فيمن يدعي أن عنده علما لدنيا يعلم به ، فيقول : (والحق في هذا الموضع أن يقال : العلم اللدني هو حق لاشك فيه ، لكن الدليل على تصديق من ادعى وجوده أن يكون علمه على الكتاب والسنة خالصا من الشوائب صادقا في توجهه عارفا بالخواطر صالحها

---

(١) انظر : الشيخ أحمد بن عجيبة : شرح صلاة القطب ابن مشيش ص ٢١. تحقيق : العمراني الخالدي عبدالسلام . دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء –المغرب . بدون تاريخ .

(٢) انظر : بهجة النفوس جـ ١ ص ٤٦ .

وفاسدها معرفة كلية ؛ لأن علم الخواطر قائم بذاته)[١].

وهذا الذي ذكره الحافظ هو ما أكده كبار مشايخ الصوفية المحققين، يقول الإمام الجنيد : (من لم يسمع الحديث ، ويجالس الفقهاء ، ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه)[٢] .

و الحق أن كبار المشايخ كانوا يتعلمون العلم الشرعي مع كونهم قد رُزقوا العلم اللدني فجمعوا بين العلمين معا مع شدة العلم الشرعي عليهم . فيروي الهجويري عن أبي يزيد البسطامي قوله : (عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعته) . ثم يعلق الهجويري قائلا : (والحقيقة أن الطبع أميل إلى الجهل منه إلى العلم ، ويمكن عمل الكثير بالجهل دون مشقة ، ولا يمكن الخطوة واحدة بالعلم دون عناء ، وصراط الشريعة أدق وأخطر كثيرا من صراط الآخرة –لأنه دال عليه فمن استقام هنا استقام هناك –وكل دعاوى المدعين تتلاشى في ممارسة الشريعة، ويتعرى أمامها كل أرباب اللسان) [٣].

وبالرغم من هذه الدقة في قبول العلم اللدني ، ووضع شروط لقبوله كما ذكرها الحافظ ابن أبي جمرة وغيره من مشايخ الصوفية ، والتحذير من القول به إلا

---

(١) انظر : بهجة النفوس جـ ١ ص ٤٧ .

(٢) قواعد التصوف ص ٤٣ .

(٣) انظر : الهجويري : كشف المحجوب ص ٣١٨ . دراسةوترجمةوتعليقالدكتورة / إسعاد قنديل . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٤ هـ ،١٩٧٤م .

على موافقة الكتاب والسنة ، فإن الصوفية أكدوا على أن العلم اللدني أو الإلهام أو الكشف لا يتعدى صاحبه من حيث العمل ، فهو حال فردي ، يقول الشيخ زروق : (مبنى العلم على البحث والتحقيق ، ومبنى الحال على التسليم والتصديق ، فإذا تكلم العارف من حيث العلم نظر في قوله بأصله من الكتاب والسنة وآثار السلف ، لأن العلم معتبر بأصله ، وإذا تكلم من حيث الحال ، سلم له ذوقه ، إذ لايوصل إليه إلا بمثله ، فهو معتبر بوجدانه . فالعلم به مستند لأمانة صاحبه ، ثم لا يقتدى به ، لعدم عموم حكمه ، إلا في حق مثله)[١] .

٣ - القول بالحلول.

الحلول : (كون الشيء حاصلا في الشيء ومختصا به بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر تحقيقا أو تقديرا ، والحلول نوعان : حلول جواري ، وحلول سرياني ، فالجواري : عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفا للآخر كحلول الماء في الكوز . والحلول السرياني عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد ، فيسمى الساري فيه حالا والمسري فيه محلا) .[٢]

وقد أجمع الصوفية على رفض نظرية الحلول ، مؤكدين على أن الله تعالى منزه

---

(١) قواعد التصوف ص ٣٩ .

(٢) انظر : أبو البقاء الفكومي : الكليات ص ٦٠٨ . تحقيق عدنان درويش – محمد = المصري .
= مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م . وانظر :الجرجاني : التعريفاتص ١٢٥ .
تحقيق :إبراهيم الإبياري . دارالكتابالعربي .بيروت–لبنان ١٤١٥هـ

عن الحلول والاتحاد بالأجسام مستدلين على ذلك بالقرآن وأدلة العقل .

فبداية أجمعوا على أنه سبحانه وتعالى (ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، لا اجتماع له ولا افتراق ، لا يتحرك ولا يسكن ، ولا ينقص ولا يزداد ، ليس بذي أبعاض ولا أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء ، ولا بذي جهات ولا أماكن ، لا تجري عليه الآفات ، ولا تأخذه السنات ولا تداوله الأوقات ، ولا تعينه الإشارات ، لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان ، لا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن ، لا تحيط به الأفكار ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الأبصار)[1].

ويقول الطوسي في اللمع : (والله تعالى موصوف بما وصف به نفسه ، كما وصف به نفسه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الشورى: ١١) . والذي غلط في الحلول غلط لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق وبين أوصاف الخلق ؛ لأن الله تعالى لا يحل في القلوب ، وإنما يحل في القلوب الإيمان به ، والتصديق له ، والتوحيد والمعرفة ، وهذه أوصاف مصنوعاته ، من جهة صنع الله بهم ، لا هو بذاته أو بصفاته يحل فيهم ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا)[2] .

وينقل الإمام القشيري عن الإمام الجنيد قوله في نفي الحلول مع التعجب من قائل هذا القول : (متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير بمن له شبيه ونظير ؟!

---

(١) التعرف ص ١٣ .

(٢) اللمع ص ٥٤٢ .

هيهات هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ، ولا وهم ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان)[١].

وتبرأ الصوفية من هذه المقالة ومن قائليها ، فالطوسي في اللمع يعدد أصناف الحلوليين ويؤكد ضلالهم وبعدهم عن الملة قائلا : (بلغني أن جماعة من الحلولية ، زعموا أن الحق تعالى ذكره ، اصطفى أجساما حل فيها ، بمعاني الربوبية ، وأزال عنها معاني البشرية .... فبلغني أن منهم من قال بالأنوار ، ومنهم من قال بالنظر الى الشواهد المستحسنات نظرا يجهل ، ومنهم من قال : حال في المستحسنات وغير المستحسنات ، ومنهم من قال : حال في المستحسنات فقط ، ومنهم من قال : على الدوام ، ومنهم من قال : وقتا دون وقت فيما بلغني .

فمن صح عنه شيء من هذه المقالات : فهو ضال بإجماع الأمة ، كافر ، يلزمه الكفر فيما أشار إليه)[٢] .

فالطوسي وغيره يكفرون المقالة ولم يثبت عندهم أن أحدا من الصوفية قال بها ، فيقول الطوسي : (باب ذكر غلط الحلولية ، وأقاويلهم على ما بلغني ، فلم أعرف منهم أحدا ، ولم يصح عندي شيء غير البلاغ) [٣].

وقد صنف الحافظ ابن أبي جمرة القول بالحلول تحت الأقوال الشنيعة فيقول : (ومنهم قوم يأتون بلفظ شنيع فيقولون : أنا هو وهو أنا . ويدعون ذلك حالا

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٣

(٢) اللمع ص ٥٤١ .بتصرف

(٣) اللمع ص ٥٤١ .

ويجعلونه من الأحوال الرفيعة العظيمة .

وقائل هذا إما أن يكون قد غطي على عقله فقال هذا وهو لا يعقل ما قال ، فقد ارتفع الخطاب عن هذا فلا يلتفت إلى كلامه ولا توبة له ولا يحسب مقاما بل هو ضرب من الجنون [١].

وإما أن يكون جاهلا يحكي عن غيره، وليس له بذلك حال فهذا ينبغي تأديبه لأن ذلك مستحيل عقلا وشرعا ، وهو أن يرجع الخالق مخلوقا والمخلوق خالقا .
وإما أن يكون له مذهب فاسد ، فلما أن تعلق بطريق صرح به وجعله حالا) [٢].

وقد نقل مثل هذا القول عن الإمام ابن تيمية(٧٢٨هـ) حيث قال في الرسائل والمسائل : (بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حال الفناء القاصر سكر وغيبة عن السوى ، والسكر وجد بلا تمييز فقد يقول في تلك الحال سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، أو نحو ذلك من الكلمات التي تؤثر عن أبي يزيد البسطامي أو غيره من الأصحاء، وكلمات السكر أن تطوى ولا تروى ولا تؤدى إذا لم يكن سكره بسبب محظور من عبادة أو وجه منهي عنه.

فأما إذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً، لا فرق في ذاك بين

---

(١) نلاحظ أن الحافظ ابن أبي جمرة يلتمس العذر لصاحب القول من باب إحسان الظن ، خاصة فيما يتعلق بحكم الإيمان ، ولم يمنعه ذلك من رميه بالجنون ؛ لأن المجنون غير مكلف ولا تسري عليه الأحكام الشرعية ولا يعد قوله حالا أو مقاما أو منسوبا لطائفة معينة ، فكلام المجنون عليه وحده .

(٢) بهجة النفوس جـ ١ ص ٤٩ .

السكر الجسماني والروحاني فسكر الأجسام بالطعام والشراب، وسكر النفوس بالصور، وسكر الأرواح بالأصوات، وفي مثل هذا الحال غلط من غلط بدعوى الاتحاد والحلول العيني في مثل دعوى النصارى في المسيح، ودعوى الغالية في علي وأهل البيت، ودعوى قوم من الجهال الغالية في مثل الحلاج أو الحاكم بمصر أو غيرهما، وربما اشتبه عليهم الاتحاد النوعي الحكمي بالاتحاد العيني الذاتي)[١].

ومما سبق يتضح أن الحافظ ابن أبي جمرة يوافق المحققين من الصوفية حيث يرى أن هذه الأقوال لا تصح مطلقا ، حتى وإن كان قائلها قد غطي على عقله أو ينقلها جهلا ، ويرى أن حال أهل الثبات أولى بالقبول ، وهو الحال الأكمل فيقول : (وإنما حكي عن السادة الفضلاء من أهل هذا الشأن التأدب والاحترام والوقار في مقاماتهم ، ولم يخل قط بأدب من آداب الشريعة لا في حال حضورهم ولا في حال غلبتهم ، مثل ما فعل الثوري [٢] حين أخذه الحال فكان يقول : أحد أحد فإذا جاءت الصلاة صلى)[٣] .

---

(١) الإمام ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل جـ ١ ص ١٦٨ . تحقيق :السيد محمد رشيد رضا الناشر : لجنة التراث العربي . بدون تاريخ .

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة من رؤوس الطبقة السابعة وكان ربما دلس مات سنة مائة وإحدى وستين وله أربع وستون سنة . انظر : الحافظ ابن حجر : تقريب التهذيب ص ٢٤٤ . تحقيق / محمد عوامة دار الرشيد – سوريا ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦ م .

(٣) بهجة النفوس جـ ١ ص ٤٩ بتصرف

المبحــث الثالــث

موقف الحافظ ابن أبي جمرة من التصـوف السـني

مدح طريقهم لالتزامهم بالشرع دون الأدعياء

ظهر أن الحافظ ابن أبي جمرة قد قسم الصوفية إلى قسمين : فضلاء وأدعياء أو منتسبين على حسب تعبيره ، وقد عاب على المنتسبين والأدعياء عدم تمسكهم بالكتاب والسنة ، وقول بعضهم بالحلول .

أما القسم الأول فإن الحافظ يرى حسن طريقتهم وحسن مجاهدتهم ، وجميل سيرهم إلى الله تعالى خاصة وأن سيرهم إلى الله تعالى على الكتاب والسنة .

فإن الصوفية قد تمسكوا بالكتاب والسنة في طريق سيرهم إلى الله تعالى ولم يقتنعوا بأذواق ومواجيد وأحوال إلا إذا كانت على الكتاب والسنة فعلى سبيل المثال لا الحصر(قال سهل بن عبدالله التستري (٢٨٣هـ) : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل ، وقال أبو سليمان الداراني (٢١٥هـ) : ربما تنكت الحقيقة قلبي أربعين يوما فلا آذن لها أن تدخل قلبي إلا بشاهدين من الكتاب والسنة)[١].

وقد شهد لهم الإمام الشاطبي(٧٩٠هـ) في كتابه الاعتصام بذلك قائلا : (الوجه الرابع من النقل : ما جاء في ذم البدع وأهلها عن الصوفية المشهورين عند الناس ، وإنما خصصنا هذا الموضع بالذكر وإن كان فيما تقدم من النقل كفاية[٢] ؛ لأن كثيرا من الجهال يعتقدون فيهم أنهم متساهلون في الاتباع ، وأن اختراع العبادات والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ، ويعملون عليه . وحاشاهم من

---

(١) انظر : اللمع ص ١٤٦ .

(٢) يقصد النقل عن الكتاب والسنة وأقوال السلف .

ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به فأول شيء بنوا عليه طريقتهم اتباع السنة واجتناب ما خالفها)[١].

فيمدح الحافظ طريقتهم في مجاهدة النفس متخذا منها سبيلا لحسن طريقة أهل التصوف إجمالا مبينا أن هذا المدح قد استحقوه لالتزامهم بالشرع أشد التزام.

فيقول عن حديث السيدة عائشة ﴿رضي الله عنها﴾ عن النبي﴿صلى الله عليه وسلم﴾ قال : (إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا) [٢]. أن فيه (دليل لحسن طريق أهل الصوفة فإن كل ما كان فيه مخالفة للنفس ولم يكن ممنوع شرعا فإن صاحبه في ذلك مأجور . إذا استقريت [٣] هذه القاعدة بحسب قواعد الشريعة تجدها إن شاء الله غير منكسرة فأخذ أهل الطريق من أجل ذلك في مخالفتها مرة واحدة) [٤].

وأما تفصيلا فقد استدل الحافظ ابن أبي جمرة على حسن طريق أهل التصوف بأدلة من السنة ذكرها للدلالة على التزام الصوفية في أفعالهم بالكتاب والسنة ،

---

(١) انظر : الإمام الشاطبي : الاعتصام جـ ١ ص ١١٩ . تحقيق: سليم بن عيد الهلالي .دار ابن عفان، السعودية . ط ١ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

(٢) أخرجه البخاري كتاب البيوع . باب قول الله تعالى﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾البقرة: ٢٦٧ . ج ٢ ص ٧٢٨ .

(٣) يعني : استقرأت بإبدال الهمزة .

(٤) بهجة النفوس جـ ٢ ص ١٣٦ .

وجعلها قيدا يستحق فاعله المدح وتاركه اللوم ، وقاعدة للتفريق بين الصادق والدعي .

أولا : ذكر الله تعالى

ذكر الله تعالى من أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد لله تعالى ، وهو من الأعمال التي لم يحدها الشرع بعدد او بوقت بل ورد الأمر الإلهي فيه بالكثرة ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾الأحزاب: ٤١) ،وقال سبحانه :﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾الجمعة: ١٠) . فالذكر الكثير سبب للفلاح . وأكد تلك المعاني القرآنية النبي(ﷺ)فيما روته عنه السيدة عائشة (رضي الله عنها)أنه (ﷺ) كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه)[١] .وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله (ﷺ)يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له : جمدان فقال : (سيروا هذا جمدان سبق المفردون سبق المفردون) قالوا : يا رسول الله ما المفردون ؟ قال : (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات)[٢].

وقد اهتم الصوفية في أورادهم بإعلاء أمر ذكر الله تعالى ، حتى جعلوه هو الأساس في الطريق الى الله تعالى ، يقول الإمام القشيري : (الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة في هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه . باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة . جـ١ ص ١٩٤ .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه . باب الحث على ذكر الله تعالى . جـ٨ص ٦٣ .

إلا بدوام الذكر . وقال الثوري : لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله تعالى)[١]. ويقول الشيخ ابن عجيبة : (الذكر إذا أطلق ينصرف لذكر اللسان ، وهو ركن قوي في الوصول ، وهو منشور الولاية ، فمن ألهم الذكر فقد أعطي المنشور ، ومن سلب الذكر فقد عزل)[٢].

والحافظ ابن أبي جمرة يرى أن الصوفية فضلوا بهذا الأمر فيقول : في حديث : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على شيء قدير . في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)[٣] دليل على تفضيل أهل الصوفة ، يؤخذ ذلك من جعل هذا الأجر العظيم لمن قال هذا القول مائة مرة ، فكيف بمن هو يومه كله هكذا لا يفتر إلا عند أداء فريضة أو ضرورة البشرية فإن طريقهم مبني على دوام الذكر والحضور [٤]﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾السجدة: ١٧ . وهم في ذلك متبعون لسنة سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾؛ لأنه جاء في وصف حاله ﴿ﷺ﴾أنه

---

(١) انظر الأقوال السابقة وغيرها : الرسالة القشيرية ص ٣٨٢- ٣٨٧ .

(٢) الشيخ أحمد بن عجيبة : معراج التشوف إلى حقائق التصوف ص ٤٧ . تحقيق د / عبدالمجيد خيالي . مركز التراث الثقافي المغربي – الدار البيضاء –المغرب . بدون تاريخ .

(٣) أخرجه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرةفي كتاب بدء الخلق . باب صفة إبليس وجنوده . جـ٣ ص ١١٩٨ .

(٤) انظر الأقوال السابقة وغيرها : الرسالة القشيرية ص ٣٨٢- ٣٨٧ .

كان طويل الصمت كثير الذكر وعلى هذا بنوا طريقهم ، وقد قال(ﷺ) : " ما عمل آدمي من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله" [١])[٢].

فذكر الله إذا هو الوسيلة للوصول إلى غاية عظمى ، فذكر الله باللسان وسيلة للحضور القلبي ، وهما وسيلتان للقرب والوصول .

لكن لتحقيق هذه الغاية لابد من أن يكون الذاكر متأسيا بالنبي(ﷺ)متبعا للأوامر سائرا على النهج النبوي، وليس متبعا لنفسه، وهذا هو شرط القبول الأول.

وقد تكلم الحافظ ابن أبي جمرة في هذا الشرط موضحا السنة في الذكر وكيف يحققها العبد مصححا لمن ضلوا الطريق في هذا الباب قائلا : (وهذا الذكر الذي يبلغ به العبد هذا الحال إنما هو بعد أداء الفرض ؛ لأن ما نحن بسبيله هو كله من

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده باللفظ المذكور مرفوعا عن سيدنا معاذ بن جبل . ونسبه ابن ماجة والحاكم في المستدرك وغيرهما من قول سيدنا معاذ بن جبل والنص عندهم : (عن أبي الدرداء: أن رسول الله قال : ألا أنبئكم بخير أعمالكم و أرضاها لكم عند مليككم و أرفعها في درجاتكم و خير لكم من إعطاء الذهب و الورق و من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم و يضربون أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال : ذكر الله قال : و قال معاذ بن جبل : ما عمل امرؤ بعمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله) قال البيهقي في شعب الإيمان : و روينا في كتاب الدعوات من حديث مكي بن إبراهيم عن عبد الله بن سعيد عاليا و روى آخر الحديث من وجه آخر عن معاذ بن جبل مرفوعا . انظر : شعب الإيمان جـ ١ ص ٣٩٤ . تحقيق محمد السيد بسيوني زغلول . دار الكتب العلمية .بيروت–لبنانط ١ ، ١٤١٠هـ .

(٢) بهجة النفوس جـ ٤ ص ٣٦ .



باب المندوبات ، وجميع المندوب كله لا يقوم بفريضة واحدة فكيف بالمتعددة [١]، وكذلك لم يأخذ القوم في مثل هذه المندوبات حتى أكملوا فروضهم التي هي الأصل في الدين وحينئذ أخذو فيما ذكرنا .

وقد وقع بعض الناس في العكس بالسواء فسمعوا مثل هذا الحديث وشبهه فأكثرو من المندوبات وضيعوا كثيرا من الواجبات ، فصاروا كما قال صاحب الأنوار : " ردوا الأصول فروعا والفروع أصولا " ، ومعناه أنهم حافظو على المندوبات كما حافظ أهل التوفيق[٢] على الواجبات وزهدوا في الواجبات وتعلقوا في ذلك برجاء فضل الله تعالى ، وقد قال جل جلاله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ البقرة: ٢١٨ ، **وقال عز وجل** : ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ

---

(١) مقصود الحافظ هنا هو الذكر باللسان بالأذكار المعروفة الداخلة في باب النوافل ، وإلا فإن الصلاة المفروضة ذكر وتقام لأجل الذكر ، قال تعالى : ﴿ ... لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ طه: ١٤ . قال الإمام الرازي (في قوله لِذِكْرِى وجوه : أحدها : لذكري يعني لتذكرني فإن ذكري أن أعبد ويصلي لي . وثانيها : لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد . وثالثها : لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها . ورابعها : لأن أذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق . وخامسها : لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري . وسادسها : لإخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضاً آخر) . مفاتيح الغيب جـ ٢٢ ص١٨ . ط ١ دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م

(٢) هذا الوصف مدح للفاعل وذم لغيره ، وهو من باب الذم بذكر الضد ، والمعنى : إن كان الفاعل قد وفق في فعل الطاعات فالتارك مخذول .

﴿٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ – ٥٠]. فنسأله جل جلاله التوفيق إلى أداء فرضه والاجتهاد في أعمال ما ندبنا إليه وقبول ذلك والسعادة به بمنه لا رب سواه)[١] .

والمقصود من كلام الحافظ أن فعلهم للواجبات قصدهم فيه رضا الله وابتغاء رحمته ، وأنهم طامعون في الرحمة يعولون عليها في القبول وليس على أعمالهم مخافة أن يكون قد شابها رياء أو عجب ، وهم في ذلك مقتدون سنته ﴿ﷺ﴾حيث وردعن أبي هريرة أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال : (ما منكم من أحد ينجيه عمله) فقال له رجل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ولكن سددوا)[٢] ، وقد أبرز الحافظ هذا القيد لئلا يقال : إنهم عولوا على العمل وأدائه ونسوا رحمة الله تعالى .

ثانيا : التربية الصوفية ودرجاتها

التربية عند الصوفية وسيلة لتهذيب نفوس المريدين ، ونقلها من خلال التربية الى أحسن الأحوال .

وقد عرفها أستاذنا الدكتور عبدالله الشاذلي بأنها : (تهذيب وتسليك المريدين بالقصد وتهيئة المناخ لذلك على يد عارف مجرب بغية تعريف السالكين بربهم ، وتوصيلهم اليه بعد تخليصهم من شرور أنفسهم وأهوائهم

---

(١) بهجة النفوس جـ ٤ ص ٣٦ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه : باب : لن يدخل أحد الجنة عمله بل برحمة الله تعالى . جـ ٨ ص ١٣٩ .

ودنياهم)[١].

وللصوفية اهتمام كبير بأمر التربية حيث تكلموا في مبادئها ، ووضعوا لها قواعد لتسير عليها ، وجعلوها أول درجات السلوك [٢].

ويؤكد الحافظ ابن أبي جمرة هذا المعنى استدلالا بحديث بدء الوحي [٣]فيقول : (فيه دليل على أن التربية للمريد أفضل من غيرها ؛ لأن النبي﴿ﷺ﴾أول نبوته كانت في المنام فما زال يرتقي حتى كملت حالته وهو﴿ﷺ﴾أفضل البشر فلو كان غير التربية أفضل لكان أولى بها من غيره)[٤].

فالتربية لا بد منها للمريد خاصة في بداية سلوكه بعد انتباهه من غفلته ، ويرى الحافظ ابن أبي جمرة أنه لابد من توافر عدد من الأمور حتى تؤتي التربية ثمارها التربوية للمريد.

---

(١) ا.د / عبد الله الشاذلي :التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٤ ص ٣٦ . مكتبة الأزهر الحديثة –طنطا ٢٠٠١م .

(٢) انظر : أبو النجيب السهروردي : آداب المريدين ص ٢٨ . تحقيق : الدكتور / عاصم الكيالي . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنانط ١ ١٤٣٦هـ، ٢٠٠٥م .

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي . باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله جـ ١ ص ٤ .

(٤) بهجة النفوس جـ ١ ص ١٠-١١ .

أولا : ضرورة التربية على الكتاب والسنة

أكد الصوفية مرارا على هذا الأمر ، مؤكدين انه لابد من كل فعل وقول للمريد وللشيخ معا أن يكون على الكتاب والسنة .

وسبق حديث الحافظ عن حسن طريق أهل التصوف باتباعهم الكتاب والسنة وعدم الخروج عنهما .

والحال كذلك في التربية الصوفية فالمشايخ ومريدوهم تمسكوا بالسنة في جميع أحوالهم ، وزاد اعتنائهم بها في مسائل الأصول التي ينبغي أن يكونوا عليها في سيرهم إلى الله تعالى ، ومن هذه المسائل التي تستنبط من فكر الحافظ ابن ابي جمرة [١] :

١ - الأخذ بالسنة في اتباع العلم الشرعي دون غيره .

هذا أصل عظيم في التربية الصوفية لكل ما يأتي بعده من مسائل تتعلق بالتربية . ومعلوم أن العلم قسمان : علم مكتسب قائم على دراسة المسائل الشرعية المستنبطة من الكتاب والسنة ، وآخر موهوب يسمى بالعلم اللدني ،

(١) اقتصرت على هاتين المسألتين المذكورتين لسببين : أولهما : أن الحافظ ابن أبي جمرة ذكرهما صراحة . الثاني : أنهما من المسائل التي أخذت على أهل التصوف إما حكما بغير دليل ، وإما حكما على طائفة الأدعياء دون المحققين . فأردت أن أبين كيف استدل عليهما الحافظ ابن أبي جمرة وكيف أن المحققين من علماء التصوف مارسوهما بطريقة عملية على الكتاب والسنة مع شهادة عالم من علماء السنة لهم بذلك .

وهو الذي يهبه الله تعالى لمن يشاء من عباده دون سابق تعلم .

فالنوع الأول ثبتت به مسائل الشرع أصولا وفروعا فلا سبيل لإثباتها سواه ، وهو طريق الوصول الذي أكد عليه كبار المحققين من مشايخ الصوفية ، وحذرو من خلافه ، فيقول أبو الحسين الوراق (٣١٩هـ) : (لا يصل العبد إلى الله إلا بالله ، وبموافقة حبيبه(ﷺ) في شرائعه ، ومن جعل الطريق الى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث يظن أنه مهتد) [١].

وقد ذكر الحافظ ابن أبي جمرة أن مشايخ التصوف كانوا يتحققون ويحققون المريدين بالعلم الشرعي ، ويصقلون علومهم بمعرفة الصحيح والفاسد ويضعونهم على طريق الحق دون زيغ عنه (فينقل عن بعض فضلاء أهل هذا الشأن إذا خطر له الخاطر يقول : " لا أصدقك حتى تأتيني بدليلين ، دليل من الكتاب ودليل من السنة ؛ لعلمه أن الرباني [٢] لا يخالف الكتاب ولا السنة فيجتمع له العمل بالعلمين معا اللدني والشرعي . هذا هو حالهم لا ينفردون أبدا للعمل باللدني حتى يوافقه المنقول فيعملون بهما معا ، اللهم إلا عند ضرورة لا يمكن العلم بالواقع من جهة المنقول ، فيبين لهم العلم في ذلك

---

(١) السلمي : طبقات الصوفية ص ٢٣٠ . تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنان . ط ١ ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .

(٢) يقصد الخاطر الرباني ، وسيأتي مزيد تفصيل له بعون الله تعالى عند ذكر الخواطر والتمييز بينها .

أعني العلم اللدني فيعملون به لا نحتام الوقت عليهم ثم ينظرون في العلم المنقول بعد ذلك فيجدونه موافقا لما هدوا إليه)(١).

فالأخذ بالعلم الشرعي في المعرفة والعمل ضرورة لابد من توافرها في الصوفي شيخا كان أو مريدا ، فالصوفية يتعلمون الشرع ويعملون به ، فلا يتركون العمل بالسنة في أمورهم التعبدية ، فهم –أو ينبغي أن يكونوا كذلك – يسيرون على طريقة المصطفى(ﷺ) في التعبد آخذين بالأسباب في كل أحوالهم حتى وإن اعتقدوا أن الأسباب غير مؤثرة بذاتها وأن المؤثر في الكون هو الله وحده على الحقيقة (٢)، فكان الواحد منهم يتزود بالطعام والشراب في خلوته

---

(١) بهجة النفوس جـ ١ ص ٤٦ بتصرف يسير .

(٢) اختلفت الفرق في العلاقة التأثيرية بين السبب والمسبب ، ونقل هذا الاختلاف الإمام البيجوري في شرحه للجوهرة فيقول : (من اعتقد أن الأسباب العادية كالنار والسكين والأكل والشرب تؤثر في مسبباتها كالحرق والقطع والشبع والري بطبعها وذاتها فهو كافر بالإجماع.أو بقوة خلقها الله فيها ففي كفره قولان، والأصح أنه ليس بكافر بل فاسق مبتدع . ومثل القائلين بذلك المعتزلة القائلون بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة خلقها الله فيهفالأصح عدم كفرهم . ومن اعتقد أن المؤثر هو الله، لكن جعل بين الأسباب ومسبباتها تلازماً عقلياًبحيث لا يصح تخلفها فهو جاهل، وربما جره ذلك إلى الكفر، فإنه قد ينكر معجزات الأنبياء لكونها على خلاف العادة. ومن اعتقد أن المؤثر هو الله وجعل بين الأسباب والمسببات تلازماً عادياً بحيث يصح تخلفها فهو المؤمن الناجي إن شاء الله تعالى . فالفرق في ذلك أربعة كما يؤخذ من كتب السنوسي .) . انظر : الإمام البيجوري : شرح جوهرة التوحيد ص ١٦٧ . تحقيق الأستاذ الدكتور / علي جمعة . دار السلام –القاهرة . ط ١ . ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م

ورحلاته متأسين بفعله(ﷺ) كما أخبرت السيدة عائشة (رضي الله عنها) في حديث بدء الوحي حين قالت : (وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق) . وهم في ذلك حريصين على البعد عن الرياء والغرور والعجب بالنفس وذلك ؛ (لأن الخروج بغير زاد فيه شيء من الادعاء وإن كأن لم ينطق به ، ولم ينو ، فيخاف على فاعل ذلك أن يكله الله لنفسه فيعجز عن توفية ما أراد في وجهته)[١].

٢ - الأخذ بالسنة في التبرك.

التبرك : تفعل من برك وهو طلب البركة التي هي الزيادة والنماء[٢]، والتبرك سنة كان يفعلها النبي(ﷺ) ، وكذلك صحابته الكرام ، فعن سيدنا كعب بن مالك(رضي الله عنه)أن النبي(ﷺ)كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه)[٣] . يقول الحافظ ابن أبي جمرة : (في الحديث دليل على التبرك بكل ما جعلت له حرمة وترفع إلا أنه يكون ذلك على لسان العلم فيؤخذ وجه التبرك من كون سيدنا(ﷺ)يبدأ بالمسجد تبركا . فكذلك كل ما جعله الله فيه وجها من الخير ، والدليل على أن ذلك يكون على لسان العلم أنه(ﷺ)لم يفعل فيه إلا

---

(١) بهجة النفوس جـ١ ص ١١ .

(٢) انظر : لسان العرب جـ ١٠ ص ٣٩٥ . دار صادر . بيروت –لبنان

(٣) أخرجه البخاري . كتاب أبواب المساجد . باب الصلاة إذا قدم من سفر . جـ١ ص ١٧٠ .

الصلاة التي من أجلها رفع ، فكذلك يلزم في غيره ألا يكون تعظيمه والتبرك به إلا على الوجه المشروع ، ولهذا المعنى كان أهل الصوفة أكثر الناس احتراما لما جعل له حرمة ، وأن يكون ذلك الاحترام على لسان العلم كما تقدم [١] ، حتى أنه يذكر عن بعض الأكابر منهم أنه دخل المسجد فنسي وقدم رجله اليسار فوقع مغشيا لشدة الحياء من الله لكونه وقعت منه مخالفة السنة في دخول بيته ؛ لأن السنة في دخول المسجد تقديم الرجل اليمين ، وقد قال العلماء : من نسي فقدم اليسار أخرجه وقدم اليمين ، فإنه معذور بالنسيان ، فانظر إلى احترام هذا السيد كيف كان وهو فيما وقع منه معذور على لسان العلم فناهيك عن غيره) [٢] .

وبهذا يظهر أن الحافظ ابن أبي جمرة يرى أن طريق التصوف في التربية قائم على الكتاب والسنة ، وأن أهله من المحققين هم أكثر الناس اتباعا للسنة ، وأحرص الناس على أدائها ، وأما من خالفها فليس منهم بل هو من الأدعياء المنتسبين ، وهذه قاعدة لكل ما يأتي من مسائل في هذا الباب .

---

(١) يُلاحَظ أن الشيخ الحافظ ابن أبي جمرة أكد على هذا المعنى أكثر من مرة ، وذلك لأن مسألة التبرك من المسائل التي كثر حولها الجدل قديما وحديثا من حيث مشروعيته وعدمها ، ثم إذا كان مشروعا فكيف يكون ؟ وما هي الأشياء التي يجوز التبرك بها ؟ ومتى يسمى الفعل تبركا ؟ ومتى يسمى غير ذلك ؟ فالحافظ وكثير من أهل العلم يرون استحباب التبرك بكل ما جعلت له حرمة وبركة لكن بشرط أن يكون ذلك على لسان العلم الشرعي وليس بالهوى .

(٢) بهجة النفوس جـ ١ ص ١٩٠ .

ثانيا : اتخاذ الشيخ المربي

اتفق الصوفية على أن أول ما يلزم المريد بعد الانتباه من غفلته أن يقصد إلى شيخ ناصح مرشد عليم بعيوب النفس وأغراضها ودواعيها وأدوية أمراضها ، مؤتمن على دينه ، معروف بالنصح والأمانه ، يبصره بعيوب نفسه ، ويخرجه من دائرة حسه ؛ لأن من لم يكن له شيخ يقوده إلى طريق الهدى قاده الشيطان إلى طريق الردى [١] .

وقد استنبط الحافظ ابن أبي جمرة ذلك المعنى من حديث سيدنا عبدالله بن عمر﴿رضي الله عنهما﴾يقول : جاء رجل إلى النبي﴿ﷺ﴾فاستأذنه في الجهاد فقال : أحي والداك قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد) [٢] . فيقول : (فيه دليل على أن الدخول في السلوك والمجاهدات السنية فيه أن يكون على يد عارف به فيرشد إلى ما هو الأصلح فيه والأسد بالنسبة إلى حال السالك ؛ لأن هذا الصحابي ﴿رضي الله عنه﴾لما أن أراد الخروج إلى الجهاد لم يستبد برأي نفسه في ذلك حتى استشار من هو أعلم منه وأعرف [٣] ، هذا هو ما في الجهاد الأصغر ، فكيف به في

---

(١) انظر : آداب المريدين ص ٢٨ . وانظر : ابن مامين : نعت البدايات وتوصيف النهايات ص ٤ . دار الفكر بيروت – لبنان .بدون تاريخ .وانظر :التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٤ ص ٢٤٠.

(٢) أخرجه البخاري . كتاب الجهاد والسير . باب الجهاد بإذن الأبوين جـ٣ ص ١٠٩٤ .

(٣) يؤيد هذا المعنى أيضا حديث سيدنا أسيد بن حضير الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه . قال :
=

الجهاد الأكبر . وهذا أدل دليل لأهل الصوفة المتحققين الذين لا يدخلون في المجاهدات والسلوك إلا تحت يد شيخ عارف بالسلوك ويقولون بأن من دخل في ذلك دون شيخ قل أن يجئ منه شيء ، وإن جاء فلا يصل إلى مقام المربي ، ومعرفته وفطنته ، اللهم إن كان ذلك بخرق العادة فليس الكلام عليه وإنما الكلام على ما جرت به عادة الحكمة)[١].

ومقصود كلام الحافظ : أن التربية في العادة لابد أن تكون على يد شيخ عارف ، وهو ما تعارف عليه المسلمون سلفا وخلفا في كل فن من فنون العلوم

= (حدثني حسن بن علي الحلواني وحجاج بن الشاعر وتقاربا في اللفظ قالا حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي حدثنا يزيد بن الهاد أن عبد الله بن خباب حدثه أن أبا سعيد الخدري حدثه أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده إذ جالت فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضا قال أسيد فخشيت أن تطأ يحيى فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها قال فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت فرسي فقال رسول الله ﷺ اقرأ ابن حضير قال فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله ﷺ اقرأ ابن حضير قال فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله ﷺ اقرأ ابن حضير قال فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها فقال رسول الله ﷺ تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم) . أخرجه الإمام مسلم في صحيحه . كتاب صلاة المسافرين . باب نزول السكينة لقراءة القرآن . جـ ٢ ص ١٩٤ .دار الجيل بيروت دار الأفاق الجديدة ـ بيروت–لبنان .

(١) بهجة النفوس جـ ٣ ص ١٤٦ .

، وعند كل تربية للسلوك الظاهر أو للأخلاق ، لابد من وجود شيخ عارف يوجه ويرشد وينصح ويبين الخطأ من الصواب ، دأب المسلمون على ذلك منذ الصدر الأول ، فالصحابة رباهم النبي ﴿ﷺ﴾، فكان يرشدهم إلى كل فعل صالح ، وكانوا يسألونه ﴿ﷺ﴾ولا يملون من السؤال ، ولا يمل﴿ﷺ﴾ من الإجابة ، ثم بعد ذلك قام الصحابة بتربية التابعين وظل الأمر يتتابع حتى يوم الناس هذا ، لا ينكره إلا جاهل دعي مغرور بنفسه يظن أنه قد يتعلم من غير شيخ مربي .

ثالثا : التخلي

التخلي أحد درجات التربية الصوفية ، يقوم كغيره من مسائل التصوف على الكتاب والسنة حتى يؤتي ثمرته في طريق السير إلى الله تعالى ، وفيه يبدأ المريد بنبذ وترك معوقات السلوك إلى الله تعالى .

تعريف التخلي

التخلي عند أهل اللغة يعني : التفرغ ، يقال : تخلى للعبادة وهو تفعل من الخلو ، والمراد التبرؤ من الشرك وعقد القلب على الإيمان . وخلى عن الشيء أرسله وخلى سبيله فهو مخلي عنه [١] .

والتخلي عند الصوفية يعني : ترك كل ما يشغل عن الله تعالى ، يقول

(١) ابن منظور : لسان العرب جـ ١٤ ص ٢٣٧ .

الطوسي في اللمع : (والتخلي هو الإعراض عن العوارض المشغلة بالظاهر والباطن وهو اختيار الخلوة ، وإيثار العزلة وملازمة الوحدة ، وعن يوسف بن الحسين(٣٠٤ هـ)(رحمه الله تعالى) في معنى التخلي : قال : هو العزلة ؛ لأنه لم يقو على نفسه وضعف فاعتزل من نفسه لربه)[١] .

وقال الإمام القشيري : (التخلي : اختيار الخلوة والإعراض عن كل شيء شغل عن الحق)[٢].

منزلة التخلي في التربية

يقدم الصوفية التخلي في التربية عن غيره ، وغرضهم في ذلك تصفية محل المعارف وهو القلب من كل عائق يعوقه عن استقبال المعارف الربانية .

والحافظ ابن أبي جمرة يؤكد ذلك المعنى ، ويستنبط له دليلا من حديث بدء الوحي ، فيقول : (في الحديث دليل لأهل الصوفة حيث يقولون : إن التحلي لا يكون إلا بعد التخلي ؛ لأن النبي(ﷺ)تخلى أولا حتى لم يبق من مجهوده غاية ، فلما أن كان تخليه أفضل وأشرف من تخلي غيره والبشر قاصر عن التخلي لها ، ضمه جبريل(عليه السلام)حتى حصل له تخلي من نسبة ذلك التحلي ،

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٤٤٠ .

(٢) د/ قاسم السامرائي : أربع رسائل في التصوف للقشيري ص ٥٣ . المجمع العلمي بالعراق ١٩٦٢م .

ولذلك قال : حتى بلغ مني الجهد ؛ لأن التخلي هو ضمه إليه حتى بلغ من مجاهدة النفس الغاية ، والتحلي هو إلقاء الوحي إليه) [١] .

ويستنبط الحافظ ذلك المعنى أيضا من حديث المعراج الذي يقول فيه ﴿ﷺ﴾ :(فأتيت بطست من ذهب ملئ حكمة وإيمانا فشق من النحر إلى مراق البطن ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ حكمة وإيمانا) [٢]. فيقول : (فيه دليل

---

(١) بهجة النفوس جـ ١ ص ١٦ .

(٢) **أخرجه البخاري . كتاب بدء الخلق . باب ذكر الملائكة . جـ ٣ ص ١١٧٣ . وقد أرجع الكثير من شراح الحديث والمفسرين هذا الحديث إلى أنه المقصود من قوله تعالى** ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] **يقول الإمام الرازي : (في شرح الصدر قولان :**

الأول : ما روى أن جبريل ﷺ **أتاه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ثم ملأه علماً وإيماناً ووضعه في صدره . واعلم أن القاضي طعن في هذه الرواية من وجوه : أحدها : أن الرواية أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره** ﷺ وذلك من المعجزات فلا يجوز أن تتقدم نبوته . وثانيها : أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر . ثالثها : أنه لا يصح أن يملأ القلب علماً بلالله تعالى يخلق فيه العلوم .

والجواب عن الأول أن تقويم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا وذلك هو المسمى بالإرهاص ومثله في حق الرسول ﷺ كثير ، وأما الثاني والثالث فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول ﷺ علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي ويحجم عن الطاعات فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظباً على الطاعات محترزاً عن السيئات فكان ذلك كالعلامة للملائكة على كون صاحبه معصوماً وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

والقول الثاني : أن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلى المعرفة والطاعة ثم ذكروا فيه وجوهاً : =

لأهل الصوفة في قولهم " لا يكون تحلي إلا بعد تخلي " ؛ لأنه لم يوضع الإيمان والحكمة في الباطن المباركة حتى شقت وغسلت وحينئذ ملئت ، فالشق والغسل هو التخلي ، وما ملئ به من الحكمة هو التحلي [1] ، فعلى قدر التخلي يكون التحلي) [2].

= أحدها : أنه ﷺلما بعث إلى الجن والإنس فكان يضيق صدره عن منازعة الجن والإنس والبراءة من كل عابد ومعبود سوى الله فآتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغره عنده كل شيء احتمله من المشاق وذلك بأن أخرج عن قلبه جميع الهموم وما ترك فيه إلا هذا الهم الواحد فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال ولا يبالي بما يتوجه إليه من إيذائهم حتى صاروا في عينه دون الذباب لم يجبن خوفاً من وعيدهم ولم يمل إلى مالهم) انظر : مفاتيح الغيب جـ ٣٢ ص ٤ . دار الكتب العلمية – بيروت–لبنان ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م ط١ . وانظر : الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٤٠٨ . دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م .

(١) ألمح إلى مثل ذلك المعنى الإمام الرازي عند تفسير قوله تعالىچ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي چ[طه: ٢٥] فقال : (قال موسىﷺچ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي چوقال لمحمدﷺچأَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ چ[الشرح: ١]ثم إنه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قالچوَسِرَاجًا مُّنِيرًا چ[الأحزاب: ٤٦]فانظر إلى التفاوت فإن شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلاً للنور والسراج المنير هو أن يعطي النور) . مفاتيح الغيب جـ ٢٢ ص ٣٥ .

(٢) بهجة النفوس جـ ٣ ص ١٨٧ . وقد وقعت حادثة شق الصدر للنبيﷺأكثر من مرة ، في صغره قبل البعثة ، وبعد البعثة ، ولكل منها حكمة كما يقول الحافظ ابن حجر : (فالأول : وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس : "فأخرج علقة فقال هذا حظ الشيطان منك " ، وكان هذا في زمن الطفولية ، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ، ثم وقع شق الصدر عند البعث ؛ زيادة في اكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير ، ثم
=

أنواع التخلي

يقسم الحافظ ابن أبي جمرة التخلي إلى نوعين : مكتسب وغير مكتسب مستدلا على ذلك بحديث بدء الوحي الذي ورد فيه أنه(ﷺ)كان يتحنث في الغار الليالي ذوات العدد ، وأن سيدنا جبريل قد غطه(ﷺ)، فيقول : (فيه دليل على أن التخلي على ضربين : مكتسب وفيض من الله تعالى ، فالمكتسب مثل فعل النبي(ﷺ)من الخلوة في الغار والتحنث فيه ، والفيض هو غط سيدنا جبريل وضمه له (ﷺ).

فقد يكون من السالكين من تخليه بالكسب لا غير ، وقد يكون تخليه بالفيض لا غير مثل إبراهيم ابن أدهم[1] ، والفضيل بن عياض [1] وغيرهما ،

= وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة ويحتمل ان تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه ﷺ ،ويحتمل ان تكون الحكمة في انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك قال القرطبي في المفهم لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء لأن رواته ثقات مشاهير) . فتح الباري جـ٧ ص ٢٠٥ .

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، القدوة الإمام العارف، سيد الزهاد، أبو إسحاق العجلي، وقيل: التميمي، الخراساني البلخي، نزيل الشام.قال البخاري: قال لي قتيبة: إبراهيم بن أدهم تميمي يروي عن منصور قال: ويقال له: الجعلي.وفي رسالة القشيري، قال: هو من كورة =

وقد يجمع لبعضهم الحالتين (٢) فيكتسب ويفاض عليه كما فعل للنبي﴿ﷺ﴾وكثير ما هم ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء) (٣) .فالجمع بين النوعين يعد أكمل حالا من أحدهما وحده .

= بلخ، من أبناء الملوك، أثار ثعلبا أو أرنبا، فهتف به هاتف: ألهذاخلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ فنزل، وصادف راعيا لأبيه، فأخذ عباءته، وأعطاه فرسه، وما معه، ودخل البادية، وصحب الثوري ، والفضيل بن عياض ، ودخل الشام، وكان يأكل من الحصاد وحفظ البساتين . انظر : سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ٣٨٩ .

(١) الفضيل بن عياض ابن مسعود بن بشر، الامام القدوة الثبت، شيخ الاسلام، أبو علياالتميمي اليربوعي الخراساني، المجاور بحرم الله. ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، وارتحل في طلب العلم.قال أبو عمار الحسين بن حريث، عن الفضل بن موسى، قال: كان الفضيل بن عياض شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، إذا سمع تاليا يتلوﭽأَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﭼ[الحديد: ١٦] فلما سمعها، قال: بلى يا رب، قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هاهنا، يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.انظر : سير أعلام النبلاء جـ٨ ص ٤٢٣ .

(٢) وهذه هي حال الكمال بأن يجمع له التخلي المكتسب والفيض من الله تعالى .

(٣) بهجة النفوس جـ١ ص ١٧ .

التخلي المكتسب

يقوم التخلي المكتسب على عدد من المسائل مكملة لبعضها ، فلابد للسالك منها جملة واحدة بحيث لاينفك أحدها عن الآخر ولا يعرف لها ترتيب مستقل غالبا ، ، ونلمح من فكر الحافظ ابن أبي جمرة أن التخلي المكتسب يشتمل على ثلاثة مسائل رئيسية وهي

أ – الخلوة والاعتزال ب – مجاهدة النفس جـ – تمييز الخواطر .

أولا : الخلوة والاعتزال

الخلوة على الحقيقة هي : (محادثة السر مع الحق بحيث لايرى غيره ، وأما صورتها فهو ما يتوصل به إلى هذا المعنى من التبتل الى الله تعالى والانقطاع عن غيره)(١) . (والخلوة أخص من العزلة، وهي بوجهها وصورتها نوع من الاعتكاف، ولكن لا في المسجد، وربما كانت فيه، وأكثرها عند القوم لا حدَّ له، لكن السنة تشير للأربعين بمواعدة موسى (عليه السلام) ، والقصد في الحقيقة :الثلاثون، إذ هي أصل المواعدة، وجاور عليه الصلاة والسلام بحراء شهراً ، وكذا اعتزل نساءه، وشهر الصوم واحد. وزيادة القصد ونقصانه كالمريد في سلوكه. وأقلها عشرة لاعتكافه عليه الصلاة والسلام للعشر، وهي للكامل زيادة في حاله، ولغيره ترقية، ولا بد من أصل يُرجع إليه)(٢).

---

(١) ابن عطاء الله السكندري : مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح ص ٣٧ . تحقيق : محمد عبدالسلام إبراهيم . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنان .

(٢) قواعد التصوف ص ٧٧ .

وللخلوة غاية لأجلها شرعت وهي (تطهير القلب من أدناس الملابسة، وإفراد القلب لذكر واحد، وحقيقة واحدة، ولكنها بلا شيخ مخطرة، ولها فتوح عظيم، وقد لا تصح بأقوام، فليعتبر كل أحد بها حالَه)[١].

فللخلوة في باب التخلي منزلة عظيمة ، ولجل ذلك فإن الحافظ ابن أبي جمرة يرى أن الخلوة هي الأولى في البداية وأنها عون للإنسان على العبادة والصلاح. ففي حديث بدء الوحي : (دليل على أن الأولى بأهل البداية الخلوة والاعتزال ؛ لأن النبي ﴿ﷺ﴾كان في أول أمره يخلو بنفسه فلما انتهى ﴿ﷺ﴾حيث قدر له لم يفعل ذلك ، وبقى يتحنث بين أهله، وصار حاله إلى انه إذا سجد غمز أهله فتضم رجلها حيث يسجد ، وفي البداية لم يقنعه ﴿ﷺ﴾أن ينعزل عنهم في البيت حتى خرج إلى الغار .

وفيه دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبده وصلاح دينه ؛ لأن النبي ﴿ﷺ﴾لما اعتزل عن الناس وخلا بنفسه أتاه هذا الخبر العظيم [٢] ، وكل

---

(١) نفسه .

(٢) قد يظن أن الحافظ ابن أبي جمرة يقول باكتساب النبوة . لكن حقيقة الأمر غير ذلك فهو يقصد أن الخلوة كانت هي السبب الظاهر في مجيء الوحي ، وأن الوحي أول ما جاءهﷺكان في خلوته . وقد بين الحافظ أن ذلك كله يأتي على حسب قسمة الله تعالى وليس باجتهاد العبد . فالنبوة لم تأته ﷺلأنه اختلى ، بل جاءته في حال خلوته لأنها الحالة التي يكون فيها مستعدا لتلقي الوحي من الله سبحانه وتعالى دون أن يكون هناك مشوشات أو معطلات لهذا التلقي .

أحد إذا امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم الله له من مقامات الولاية)[١].

والخلوة : (كناية عن انفراد الإنسان بنفسه)[٢] وهي تفترق عن التحنث (فالخلوة نفسها عبادة فإن زيد عليها من الطاعات فهو التحنث ، ومعنى التحنث التعبد فهو نور على نور)[٣].

شروط الخلوة

تحدث الحافظ ابن أبي جمرة عن الواجب فعله في الخلوة حتى تكون على الهدي النبوي ، مستدلا على كلامه بنصوص من حديث بدء الوحي .

وهذه الأمور هي بمثابة شروط للخلوة حتى تكون صحيحة بحسب الشرع فتؤتي ثمارها بإذن الله تعالى.

الشرط الأول : التسبب في الزاد عند دخول الخلوة

دليل هذا الشرط أن النبي ﴿ﷺ﴾كان يخرج إلى التحنث بما يصلح من زاده للعيش طول مقامه فيه، والحكمة في ذلك أن الخروج بالزاد فيه إظهار لوصف للعبودية وافتقارها وضعفها ؛ لأن المرء أبدا ليس له قوة على تلك المور إلا بإعانة من الله سبحانه وتعالى ، والخروج بغير زاد فيه شيء من الادعاء وإن كان

---

(١) بهجة النفوس جـ ١ ص ١١ .

(٢) المرجع السابق نفسه جـ ١ ص ٩

(٣) المرجع السابق نفسه .

لم ينطق به ولم ينو فيخاف على فاعل ذلك أن يكله الله لنفسه فيعجز عن توفية ما أراد في وجهته)[١].

الشرط الثاني : إعلام الأهل بموضع الخلوة

ودليله أنه ﴿ﷺ﴾كان يخرج إلى الغار وأهله يعلمون بموضعه ، وماذا يريد بخروجه ، والحكمة في ذلك من وجوه :

الوجه الأول : أنه معرض هو وأهله لما يطرأ من الأمراض وغيرها من الأعراض فإذا كان للأهل علم بموضعه علموا إلى أين يذهبون إليه إذا طرأ شيء من ذلك .

الوجه الثاني : أن في إخبار الأهل بذلك إدخال سرور عليهم وإزالة للوسواس عنهم ؛ لنهم يتوقعون مصيره إلى مواضع مختلفة ممكنة فإعلامه لهم بذلك إزالة لما ذكرناه وإدخال السرور عليهم لكونهم يعلمون أنه منقطع للتعبد ومشغول به، وفي إدخال السرور من الأجر والثواب العظيم ما قد علم .

الوجه الثالث : ما في ذلك من الدعوة للأهل والإخوان وإن كان لم يطلب ذلك منهم ؛ لأن الغالب من النفوس الانبعاث لما يتكرر عليها من الأمور .

الوجه الرابع : أن من عرفه منقطعا للتعبد ومشغولا به فإن أراد صحبته

---

(١) بهجة النفوس جـ١ ص١١ .

على ما هو بسبيله من غير أن يدخل عليه خللا في طريقه ، ومن أراد غير ذلك لم يصحبه فاستراح منه وزال عنه ما يلحقه من التشويش في مخالطته) [١].

الشرط الثالث : الخلوة تكون بعد الوفاء بالحقوق والواجبات

ودليله قول السيدة عائشة ﴿رضي الله عنها﴾عن النبي﴿صلى الله عليه وسلم﴾"فكان يخلوا بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، تريد قبل أن يرجع إليهم فما يزال﴿صلى الله عليه وسلم﴾في التعبد تلك الليالي المذكورة حتى يرجع إلى أهله ". [٢](وفي هذا دليل على أن العبادة لا تكون إلا بعد إعطاء الحقوق والواجبات وتوفيتها ؛ لأنه﴿صلى الله عليه وسلم﴾ لم يكن يرجع لأهله إلا لإعطاء حقهم فكذلك غيره من الحقوق يجب إعطاؤه وتوفيته وحينئذ يرجع إلى المندوبات) [٣].

الشرط الرابع : عدم الانقطاع الدائم للخلوة

يستنبط هذا الشرط من قول السيدة عائشة ﴿رضي الله عنها﴾(ثم يرجع إلى خديجة﴿رضي الله عنها﴾ويتزود لمثلها، حيث إن (فيه دليل على أن التبتل الكلي والانقطاع الدائم ليس من السنة ؛ لأنه﴿صلى الله عليه وسلم﴾لم ينقطع في الغار وترك أهله بالكلية ، وإنما كان﴿صلى الله عليه وسلم﴾يخرج إلى العبادة تلك الأيام التي كان يحنث فيها ثم يرجع إلى اهله لضروراتهم ثم يخرج لتحنثه) [٤].

---

(١) نفسه جـ ١ ص ١٢.

(٢) بهجة النفوس جـ ١ ص ٩.

(٣) بهجة النفوس جـ ١ ص ١٠ .

(٤) بهجة النفوس جـ ١ ص ٩.

وبذلك يظهر أن الخلوة مستحبة لأهل البداية لأن فيها من التأمل والتفكر ما يعين على تصفية القلب وتنقية السريرة من أدرانها التي تعيق عن الوصول إلى الله تعالى . لكن هذه الخلوة لابد أن تكون وفق المشروع في سنته ﴿ﷺ﴾غير خارجة عنه ، وإلا تحولت إما إلى تبتل كلي قد نهى الإسلام عنه ، أو تكون خلوة يسيطر فيها الشيطان على العبد فيعيقه عن الوصول إلى الله تعالى . أو لا يقدر العبد على المواصلة فيها فيقطعها لعدم قدرته على الاستمرار بسبب أخذه نفسه بالشدة .

ثانيا : مجاهدة النفس

المجاهدة (بذل المستطاع في أمر المطاع، وقيل: ألا تدع ميسورا إلا بذلته ولا تترك مأمورا إلا نازلته. وقيل: خلع الراحة وأن يُكسر من القلب جماحه)[1].

وجهاد النفس جزء أصيل وهام في التربية الصوفية وهو يندرج تحت مسائل التخلي ؛ ذلك لأن النفس كما أخبر سبحانه على لسان سيدنا يوسف أمارة بالسوء إلا من رحم الله ، فالإنسان المسلم يحتاج إلى مجاهدتها فيما تأمر به مخالفا للشرع ، ويظل كذلك حتى تصير نفسه مطمئنة ، وبذلك يكون الإنسان كيسا عاقلا وليس عاجزا ، كما قال﴿ﷺ﴾ : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ثم تمنى على الله)[2].

---

(١) أربع رسائل في التصوف ص ٦٢ .

(٢) أخرجه بلفظه ابن ماجة في سننه . باب ذكر الموت والاستعداد له . جـ ٢ ص ١٤٢٣ . تحقيق د/ محمد فؤاد عبدالباقي. دار الفكر بيروت –لبنان .وقال الإمام الترمذي :حديث حسن . انظر : =

ولأن للنفس هذا الخطر العظيم فقد اهتم الصوفية بمجاهدتها اهتماما كبيرا تفوقوا فيه على غيرهم، ورجح بها طريقهم كما قال الحافظ ابن أبي جمرة : (لأنهم بنوا طريقهم على ترك حظوظ النفس وحمل الأذى وترك الأذى وإدخال السرور)[1].

وقد استنبط الحافظ ابن أبي جمرة من قوله﴿ﷺ﴾(ما العمل في أيام العشر أفضل من العمل في هذه) . قالوا ولا الجهاد ؟ قال (ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء)[2]دليلا على مجاهدة النفس ؛ لأنهم يقولون : لا تبلغ الأحوال النفيسة إلا بإذهاب النفس النفيسة، والمخاطرة في المجاهدات بها تبلغ الغايات)[3].

فالترقي مرهون بالتخلي ، والتخلي مقرون بمجاهدة النفس وعدم اتباع الهوى .[4]

= سنن الترمذي جـ ٤ ص ٦٣٨ . تحقيق الشيخ أحمد شاكر وآخرون .دار إحياء التراث العربي . بيروت– لبنان .

(١) بهجة النفوس جـ ٢ ص ٥٠ .

(٢) أخرجه البخاري . كتاب العيدين . باب فضل العمل في أيام التشريق جـ ١ ص ٣٢٩ .

(٣) بهجة النفوس جـ ٢ ص ٧٥.

(٤) قال الإمام القشيري في الرسالة : (قال أبو بكر الطمستاني (٣٤٠هـ) : النعمة العظمى : الخروج من النفس ؛ لأنها أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى) . الرسالة ص ٢٧٥ .

سبب مخالفة النفس

يرى الصوفية مخالفة النفس جملة واحدة ؛ لأنها تشتهي كل معصية ،وفي ذلك المعنى يقول ذو النون المصري (٢٤٥ هـ) : (لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالمحاربة) [١].ويستدل الحافظ على هذا المعنى بالحديث الذي أخرجه الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس قال ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة : عن النبي ﷺ(إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه) [٢]فجهاد النفس أمر ضروري(يؤخذ ذلك من نصه ﷺفي الحديث : إن الذي طبعت عليه أنها تتمنى ذلك الحرام وتشتهيه ، فمن هذه صفتها وجبت مخالفتها عقلا ودينا ؛ لأنها تفضي بصاحبها للهلاك) [٣].

حياة النفوس مخالفتها

يدلل الحافظ ابن أبي جمرة على هذا المعنى مستندا لحديث المسيء صلاته

---

(١) انظر : السلمي : المقدمة في التصوف ص ٢١ . تحقيق د/ يوسف زيدان . دار الجيل .بيروت– لبنان . ط١ ١٤١٩هـ .١٩٩٩م .

(٢) أخرجه البخاري . كتاب الاستئذان . باب زنا الجوارح دون الفرج .جـ ٥ ص ٢٣٠٤ .

(٣) بهجة النفوس جـ ٤ ص ١٩٣ . وانظر أيضا جـ ١ ص ٢٠١ .

الذي أخرجه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة﴿رضي الله عنه﴾:أن رجلا دخل المسجد ورسول الله﴿صلى الله عليه وسلم﴾جالس في ناحية المسجد فصلى ثم جاء فسلم عليه فقال له رسول الله﴿صلى الله عليه وسلم﴾(وعليك السلام ارجع فصل فإنك لم تصل) . فرجع فصلى ثم جاء فسلم فقال (وعليك السلام فارجع فصل فإنك لم تصل) . فقال في الثانية أو في التي بعدها علمني يا رسول الله فقال (إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تستوي قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها) . فيقول : (فيه دليل لأهل الصوفة ؛ لأن فضيحة النفس بما فيها موت لها ، وموتها حياتها . موت النفس حياتها ، من أحب أن يحيا يموت)[١]. يؤخذ ذلك من فعل الصحابي لما أقر بالخطأ وفضح عيب نفسه أحياها بمعرفة الحقيقة ، ولو أنه لم يعترف ولم يسأل لظل على حالته الأولى ، ولم يتعلم من النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾الصلاة الصحيحة ، ولم يكشف له حجاب المعرفة ، ولذلك يقول الصوفية : (إن الحجب كلها من أنفسهم فمن صح له الخروج الكلي عنها فقد وصل وعرف)[٢] . وقد نقل

(١) انظر : بهجة النفوس جـ ٢ ص ١٧ .

(٢) بهجة النفوس جـ ٢ ص٢٥ .

الإمام القشيري العديد من الأقوال التي تدل على هذا المعنى ومنها :(قال الجنيد: أرقت ليلة، فقمت إلى وردي، فلم أجد ما كنت أجده من الحلاوة والتلذذ بمناجاتي لربي، فتحير، فأردت القيام بها لم أقدر عليه، فقعدت، فلم أطق القعود، ففتحت الباب، وخرجت، فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق. فلما أحس بي، رفع رأسه، وقال: يا أبا القاسم، إلى الساعة فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ فقال: بلى قد سألت محرك القلوب أن يحرك إلى قلبك.

فقلت: فقد فعل فما حاجتك؟ فقال: متى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها.

فأقبل على نفسه، وقال: اسمعي، قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد، فقد سمعت، وانصرفت عني ولم أعرفه. ولم أقف عليه بعد.

وقال أبو بكر الطمستاني: النعمة العظمى: الخروج من النفس؛ لأنه أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل.

وقال سهل بن عبد الله: ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى)[1].

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٧٥-٢٧٦.

ثالثا : تمييز الخواطر

الخاطر (خطاب يرد على الضمائر) [1]، وللخواطر في باب العبادات خطر عظيم ، فهي سبيل تدخل الشيطان بالوسوسة وإفساد العبادات .

وقد اعتنى الصوفية بالخواطر أشد اعتناء ؛ وذلك لتمييز بعضها عن بعض . وتمييز الخواطر داخل في باب التخلي السابق للتحلي ، فالخواطر منها ما هو سيء ينبغي التخلي عنه مطلقا حتى يصير العبد مهيئا للتحلي بالخواطر الحسنة .

أقسام الخواطر

اختلف الصوفية في تحديد الخواطر ، فعدها الإمام عبدالقادر الجيلاني ستا ، وهي عنده : خاطر الشيطان ، وخاطر الروح ، وخاطر الملك ، وخاطر العقل ، وخاطر اليقين (فخاطر النفس يتناول الشهوات ومتابعة الهوى المباح منه والجناح ، وخاطر الشيطان يأمر في الأصل بالكفر والشرك والشكوى والتهمة لله عز وجل في وعده ، وفي الفزع بالمعاصي والتسويف بالتوبة ، وما فيه هلاك النفس في الدنيا والآخرة . فالخاطران مذمومان محكومان لهما بالسوء ، وهما لعموم المؤمنين .

---

(١) الشيخ / محمد المرصفي : داعي الفلاح ص ١٠٠ . تحقيق : د/ عاصم الكيالي . ملحق بكتاب آداب المريدين للسهروردي . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنانط ١ ١٤٣٦هـ، ٢٠٠٥م .

وخاطر الروح وخاطر الملك : يردان بالحق والطاعة لله عز وجل ، وما يكون عاقبته سلامة الدنيا والآخرة ، وما يوافق العلم . فهما محمودان لا يعدمهما خصوص الناس .

وأما خاطر العقل ، فتارة يأمر بما تأمر به النفس والشيطان ، وأخرى بما يأمر به الروح والملك ، وذلك حكمة من الله وإتقان لصنعه ، ليدخل العبد في الخير والشر بوجود معقول ، وصحة شهود وتميز ، فيكون عاقبة ذلك من الجزاء عائدا له وعليه .

وأما خاطر اليقين ، وهو روح الإيمان ومورد العلم ، فيرد من الله تعالى ويصدر عنه)[١] . وعدها الشيخ محمد المرصفي (٩٦٦هـ)خمس خواطر وهي : خاطر الحق ، وخاطر الملك ، وخاطر القلب ، وخاطر النفس ، وخاطر الشيطان[٢] .

---

(١) الشيخ عبدالقادر الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق جـ ١ ص ٢٠٤-٢٠٥ . تحقيق : أبو عبدالرحمن صلاح عويضة . دار الكتب العلمية . ط ١ ١٤١٧هـ . ١٩٩٧م .

(٢) يقول الشيخ محمد المرصفي: (الخاطر خطاب يرد على الضمائر ، فقد يكون بلقاء الحق ، وتارة بلقاء الملك ، وتارة بلقاء القلب ، وتارة بلقاء النفس ، وتارة بلقاء الشيطان . **فالذي من قبل الله خاطر حق** ، وعلامته انه إذا خطر لا يعترض عليه ملك ولا قلب ولا نفس ولا شيطان ، وله على القلب حكم كفريسة السبع . **وإذا كان من قبل الملك** فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم ، ومن هنا قيل : كل خاطر لا يشهد له ظاهر فهو باطل ، وعلامته انه يجب لمحمودك أبدا مع كراهية النفس إلا إذا زكت . **وإذا كان من قبل القلب** فهو قريب من خاطر الملك ، إلا أن بينهما فرقا وهو =

وأقر الحافظ ابن أبي جمرة هذا الاختلاف ورأى أن الخواطر تعود الى أربعة خواطر فيقول : (قد اختلفت المتصوفة اختلافا كثيرا في هذه الخواطر، وأحسن ما قيل فيها وألخصه أن الخواطر على أربعة أقسام : نفساني وشيطاني وملكي ورباني ، فالرباني أولها ، وهو مثل لمحة البرق ولا يثبت ، يليه النفساني ، والشيطاني والملكي)[1].

كيفية تمييز الخواطر

وضع الحافظ ابن أبي جمرة شروطا لابد منها في الحكم على الخواطر حتى يتم التمييز بينها ليعرف الصحيح من الفاسد ، وهذه الشروط منها ما هو في ذات الإنسان إذا أراد التمييز بين الخواطر بنفسه ، ومنها ما هو خارج عنه إذا

= ان القلب تفارقه في الشهوة ، والشوق ، والحنين والطيش ، والطيران ، والإنصاف والمحبة والرغبة ، والعشق والوله ، والجنون في الحق ؛ وهذا سبب ترجيح المؤمنين على الملائكة ، وأما الملائكة فما لهم من شهوة . **وإذا كان من قبيل النفس** فأكثره يدعو إلى اتباع شهوة ، واستشعار كبر ، أو ما هو من خصائص أوصاف النفس ، وعلامته أنك تحس في القلب ألما وفي الصدر ضيقا ، وفي الأعضاء وجعا ، وفي النفس خيفة ، وربما يذهب ويعود حتى تبلغ مرادها .**وإذا كان من قبل الشيطان** فهو خبيث ، وأكثره يدعو إلى الضلالة ، ويضل كل أحد على قدر ما يطيق به ، وعلامته إذا خطر يستفز ويستعجل ، ولا يجد القلب منه راحة ، وكأنك استقبلت الظلمات ، ويمازجك الرياء والالتفات إلى غير الحق وتندق أعضاؤه عند نزوله عليك وقد سموا ما كان من قبل الحق خطابا ، ومن قبل الملك إلهاما ، ومن قبل القلب هاتفا ، ومن قبل النفس هاجسا ، ومن قبل الشيطان وسواسا) . داعي الفلاح ص ١٠٠-١٠١ .

(١) بهجة النفوس جـ ٢ ص ٢٥ .

أراد التمييز بغيره .

ففي ذاته لابد (أن يكون علمه على الكتاب والسنة خالصا من الشوائب ، صادقا في توجهه ، عارفا بالخواطر صالحها وفاسدها معرفة كلية ؛ لأن علم الخواطر علم قائم بذاته) [١].

أما إذا لم تكن فيه هذه الشروط فلابد أن يعرض تلك الخواطر على شيخ مجرب عالم بأحوال الخواطر (ولأجل ذلك أخذ الفضلاء والعارفون بها العهد على المبتدئين للسلوك ألا يخفوا كل خاطر يرد عليهم كائنا ما كان ؛ ليبينوا لهم تلك الخواطر الفاسدة والصالحة وما فيها بعد المشاهدة والعيان) [٢].

(ومن ذلك ما حكي عن بعض الفضلاء منهم أعني الفضلاء المحققين أنه أتاه شخص يريد السلوك ، فأدخله للخلوة وتركه أياما ثم دخل عليه ، وقال له : كيف ترى صورتي عندك ؟ فقال: صورة خنزير ، فقال الشيخ : صدقت ، ثم تركه في خلوته أياما ثم دخل عليه وسأله مثل الأولى فقال له : صورة كلب م كذلك إلى أن قال له صورة القمر ليلة كماله فقال له صدقت الآن كمل حالك وحينئذ أخرجه من الخلوة ، ولا ذاك إلا أن النفس إذا كانت في رعونتها وشهواتها مثل المرآة الصدئة فإذا أخذ صاحبها في المجاهدة فهي

---

(١) بهجة النفوس جـ ١ ص ٤٧.

(٢) نفسه جـ ١ ص ٤٨ .

صقالة له كصقالة الصقال للمرآة ، فقبل أن تتم صقالتها إذا قابلتها الأشياء وقع المثال فيها مفسودا لبقاء بعض الصدأ فيها فإذا تمت صقالتها وارتفع عنها ذلك الصدأ كله ظهر فيها مثال الأشياء من غير زيادة ولا نقصان ورجعت تميز كل خاطر بحدته لصفائها) [١].

ومن هذا المنطلق فإن الصادقين من أهل هذا الشأن (إذا خطر له الخاطر يقول: لا أصدقك حتى تأتيني بدليلين، دليل من الكتاب ودليل من السنة) [٢].

فالتمييز بين الخواطر له شأن عظيم في التخلي وذلك ؛ (لأن من لا يعرف هذا الشأن سبق إليه الخواطر النفسانية والشيطانية والملكية فيعمل على كل خاطر يخطر له منها ولا يفرق فيها بين الصالح والفاسد فيكون في عمى وضلال ، وكل من اتبعه كذلك ، فيصدق عليهم قوله عز وجل :﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾الكهف: ١٠٤) [٣].

رابعا : التحلي

يعرف الصوفية التحلي بانه : (التشبه بالصادقين بالأقوال ، وإظهار الأعمال) [٤]. ويفرق الشيخ ابن عجيبة بين التخلي والتحلي بقوله : (التخلية

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه جـ ١ ص ٤٦ .

(٣) بهجة النفوس جـ ١ ص ٤٨ .

(٤) أربع رسائل في التصوف للإمام القشيري ص ٥٣ .

هي التنزه عن أخلاق البهائم والشياطين ، والتحلية هي التخلق بأخلاق الروحانيين ، فأخلاق البهائم : الاهتمام بالأكل والشرب والنكاح ، وأخلاق الشياطين : الحسد والمكر ، والخديعة ، والغش ، والكبر ، والغضب ، وغير ذلك . وأخلاق الروحانيين سلامة الصدر ، وسخاوة النفس ، وحسن الخلق ، والتواضع ، والحلم والتأني ، والسكينة ، والطمأنينة وغير ذلك من العلوم)[١].

فالتحلي يأتي بعد التخلي ، ولا يكون مرة واحدة ، وليس على درجة واحدة ، فبداية (على قدر التخلي يكون التحلي). ودليله قوله ﷺ في حديث المعراج : (فأتيت بطست من ذهب ملئ حكمة وإيمانا فشق من النحر إلى مراق البطن ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ حكمة وإيمانا)[٢].

يقول الحافظ ابن أبي جمرة : (فيه دليل لأهل الصوفة في قولهم " لا يكون تحلي إلا بعد تخلي " ؛ لأنه لم يوضع الإيمان والحكمة في الباطن المباركة حتى شقت وغسلت وحينئذ ملئت ، فالشق والغسل هو التخلي ، وما ملئ به من الحكمة هو التحلي ، فعلى قدر التخلي يكون التحلي)[٣]. والحديث (دليل لأهل الصوفة في قولهم : إن عمل المبتدئ كسب ، وعمل المنتهي ترك ؛ لأن

---

(١) شرح صلاة القطب ابن مشيش ص ٢١-٢٢ .بتصرف .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) بهجة النفوس جـ ٣ ص ١٨٧ . وقد تقدم الكلام عن معنى هذه العبارة عند الحديث عن التخلي .

النبي (ﷺ) في ابتداء أمره كان تخليه بالضم والغط وهي زيادة في الشدة والقوة ، كما مر الكلام عليه في حديث بدء الوحي، وكان تخليه هنا بالغسل وهو تنظيف المحل . وكذلك حال المبتدئ والمنتهي عندهم ، فالمبتدئ شأنه الكسب وهو الأخذ في الأعمال الصالحات وهي القوة ، والشدة والمنتهي شأنه النظر في الباطن وما يتعلق به من الشوائب فكل شيء يرى فيه شيئا ما من تعلق الشوائب تركه حتى يتنظف الباطن من الكدورات ولا يبق فيه غير الله تعالى) [١].

كيفية التحلي وشروطه

التحلي يكون بالترقي في المقامات السنية ، وفيه يتحلى العبد بالمقام ثم يترقى في نفس المقام ، ثم بعده المقام الأعلى حتى يتحلى العبد بالمقامات جميعها ؛ فيمتلئ بالمعاني والمعارف السامية .

والمقام هو (ما يقوم بالعبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فمتى أقيم العبد في شيء منها على التمام فهو مقامه حتى ينتقل فيه إلى مقام آخر) [٢].

وقد اختلف الصوفية في تحديد عدد المقامات فقيل (إنها سبع مقامات ،

---

(١) نفسه جـ٣ ص ١٨٥ .

(٢) أربع رسائل في التصوف للإمام القشيري ص ٤٥ .. وانظر : الرسالة القشيرية ص ١٣٢ .

وقيل تسع ، وقيل عشر مقامات ، وقيل أكثر من ذلك)[١].

وقد عدها بتفصيل الإمام السهروردي في آداب المريدين ، وهي عنده " الانتباه ، التوبة ، الإنابة ، الورع ، محاسبة النفس ، الإرادة ، الزهد ، الفقر ، الصدق ، التصبر ، الصبر ، الرضا ، الإخلاص، التوكل على الله تعالى "[٢].

شروط الترقي

اشترط الصوفية في الترقي إحكام المقام حتى يصح الترقي ؛ فإن من لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد[٣].

وقد تكلم الحافظ ابن أبي جمرة في هذا الشرط بشيء من التفصيل وألحق معه شروطا تستنبط من فكره على النحو التالي :

الشرط الأول : علو الهمة

دليل هذا الشرط عند الحافظ الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري عن سيدنا عبدالله ابن عباس ﴿رضي الله عنهما﴾ قال : كان رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان

---

(١) د/ عبد المنعم البرلسي : الجهود الفكرية لتصحيح الطريق لدى الصوفية ص ٤٢١ . رسالة دكتوراة .

(٢) آداب المريدين ص ٢٣ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٣٢ .

فيدارسه القرآن فلرسول الله﴿ﷺ﴾أجود بالخير من الريح المرسلة)[١].

وفيه يقول : (في الحديث دليل لأهل السلوك الذين يقولون بالهمم تنال المقامات لا بالأبدان ، وفيه من الفقه أنه من أراد زيادة الخير فلينظر في الأسباب المقوية للعزائم يأتيه العون ، ولا يأخذ الأمور من خارج ، وينظر إلى الأشياخ ليس إلا ، فإنه إن فعل لحقه الفتور والعجز الذي هو وصف البشرية ، ولهذا أشار﴿ﷺ﴾بقوله : " طوبى لمن جعل همه هما واحدا "[٢]؛ لأنه إذا جعل همه هما واحدا وهو هم الآخرة ذهبت عنه أوصاف البشرية وطلبها لحظوظها وخفت عليه العبادة ، وجاءه العون من حيث لا يحتسب)[٣] . فعلو الهمة معين على الترقي إذ به تتعلق الهمة بالمقام الأعلى فيستصغر العبد ما هو فيه لطلب الأعلى .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري: كتاب بدء الوحي. باب كيف كان بدء الوحي لرسول اللهﷺ. جـ ١ ص ٦ .

(٢) أخرجه ابن ماجة بلفظ آخر عن سيدنا عن عبد الله بن مسعود قال : لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم . ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم . فهانوا عليهم : - سمعت نبيكم ﷺيقول (من جعل الهموم هما واحدا هم آخرته كفاه الله هم دنياه . ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك) . كتب الإيمان . باب الانتفاع بالعلم والعمل به . جـ ١ ص ٩٥ .تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر –بيروت .

(٣) بهجة النفوس جـ ٣ ص ٢٢٨ .

الشرط الثاني : منع الأخذ بالقوة بداية في العبادات

هذا شرط مقيد لما قبله فإن علو الهمة يجب ألا يكون دافعا للأخذ بالقوة في بدايات العبادات ، بل لابد أن يكون الترقي بالتدريج . ودليله قوله ﴿ﷺ﴾:(إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)(١).

يقول الحافظ ابن أبي جمرة : (في هذا إشارة إلى التربية بالتدريج في السلوك والترقي ، ومنع الأخذ بالقوة أولا في التعبدات من نوافل الليل والنهار وغير ذلك ؛ لأن من يأخذ بذلك في بداءة أمره يغلبه الدين بالضرورة لقلة الرياضة فيما أخذ بسبيله ، ومثل هذا ما روي " أن عمر ابن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح ، فلما كان من الغد مر على الشفاء أم سليمان فقال لها : لم لم أر سليمان في الصبح فقالت : إنه بات يصلي فغلبته عيناه ، فقال عمر : لأن أشهد صلاة الصبح في الجماعة أحب إلي من أن أقوم ليلة " (٢). فانظر كيف فضل حضور الصلاة في الجماعة على قيام الليل كله

---

(١) أخرجه الإمام البخاري بسنده عن سيدنا أبي هريرة.كتاب الإيمان .باب إن الدين يسر جـ ١ ص ٢٣

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ . كتاب النداء للصلاة . باب ما جاء في العتمة والصبح . جـ ٢ ص ١٨٠ .تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي . مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان .الطبعة الاولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

، مع أن قيام الليل فيه من المشقة ما هو معلوم لكن لما أن كان ذلك القيام كله من جنس المندوب وآل أمره إلى أن أوقع الخلل في فضل من فضائل المفروضات كرهه عمر﴿رضي الله عنه﴾فلو قام من الليل بعضه ، ونام بعضه وحضر الصلاة في جماعة لكان من الآخذين بالكمال ولم يقع عليه بذلك غلبة في نقص فضيلة ولا غيرها ، فإذا أخذ المرء أولا نفسه بالرفق والرياضة في تعبداته حتى يصير ما أخذ من ذلك عادة كانت العبادة عليه يسيرة لا مشقة عليه فيها حتى يبلغ بها النهاية وهو كأنه لم يزد على نفسه شيئا)[١] .

ولذا قال ﴿صلى الله عليه وسلم﴾" فسددوا وقاربوا " ومعناه : (قاربوا الجد ولا تأخذوا الأخذ الكلي الذي تصلون به إلى المشادة فيغلبكم الدين ، وسددوا : أي ليكن جد كل شخص على ما تقتضيه بنيته وطاقته ومزاجه ، ومن هذا الباب راح كثير من العباد ؛ لأنهم يأخذون أنفسهم أولا بأن يعاندوا من ليس مثلهم من أهل النهايات فيأخذوا مأخذهم ، ويسلكوا مسلكهم فيقطع بهم في الحال عنهم ؛ لأنه قد يكون من أرادوا التشبه به أكثر قوة في بدنه منهم ، وأعدل مزاجا ، وأخذ نفسه أولا فيما هو بسبيله الآن بالتدريج في السلوك والترقي حتى صار له ما هو بسبيله من التعبد مزاجا، ولهذا قال يمن بن رزق [٢] الإمام

---

(١) بهجة النفوس جـ ١ ص ٧٥ .

(٢) يمن بن رزق الزاهـد من أهل تطيلة يكنى أبا بكر وكان أصل يمن بْن رزق من الثغر ، من قرية =

في الطريقين : " حذار حذار أهل البدايات من أن تتشبهوا بأهل النهايات فإن هناك مقامات لم يحكموها ") [١].

وتكملة هذا المعنى في قوله(ﷺ)"واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة " (حيث يستحب لأهل السلوك أن تكون البداية أولا في الليل والنهار ركعتين ركعتين ثم يزيد على ذلك ما يشاء وبحسب النشاط ؛ لئلا يخلي نفسه من الاستعانة كما تقدم حتى يبلغ بالتدريج ما أمل ؛ لأن من أخذ من هذه الأوقات بقدر طاقته من العبادات ترقى إلى ما شاء من المراتب السنية ، ولا يدركه في ذلك تعب ، فإذا أخذ بذلك كان أبدا في الترقي بالزيادة تاركا للنقص حتى يبلغ بذلك إلى نهاية ما يقتضيه حال البشرية [٢])[٣].

الشرط الثالث : المداومة على الطاعات والمتابعة بينها.

بعد الوصول لابد من المداومة حتى يحصل الترقي في المقامات

= تُجَاور تطيلة ، قال لنا أَبُو القاسم : قال لي أَبُو القاسم بْن الشمر : عرضت على القرية بها حَيْث وُلِد ، وعرض علي قبره بعسقلان ، على صفة النهر ، مكتُوب عليه اسمُه.توفى بشمجلة .انظر :الحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس جـ ٢ ص ١٩٨ تحقيق عزت العطار الحسيني . مطبعة المدني . القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

(١) بهجة النفوس جـ ١ ص ٧٥ .

(٢) يقصد الحافظ بذلك أن آخر حال البشرية هو الولاية .

(٣) بهجة النفوس جـ ١ ص ٧٧ .

والعبادات ، فإن السالك لما علت همته ، ومنع أخذ نفسه بالقوة في البداية ، رزقه الله الطاعات وجب عليه المداومة عليها والمتابعة بينها . وشاهد ذلك قوله(ﷺ) : (إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه مالم يحدث فيه تقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه)[١].

يقول الحافظ ابن أبي جمرة: (في الحديث دليل لأهل الصوفة الذين يقولون : إن الطاعة إذا لم تتبعها طاعة أخرى فهي مدخولة ، يؤخذ ذلك من قوله (ﷺ): " الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه " ، فلما كانت صلاته أو بعضها مقبولة تبعها خير آخر ، وهو جلوسه حتى استغفرت له الملائكة فكان خيرا تبعه خير)[٢] .

الشرط الرابع : الأدب شرط في الترقي

الأدب هو ركن الترقي وعماده الذي لا يوجد إلا به ، فالأدب في المقام وإحكامه وسيلة الوصول والترقي ، وليس ذلك في مقام دون مقام بل هو في جميعها .

ولأجل هذا المعنى يقول أهل الصوفة : من نال مقاما فدام عليه بأدبه

---

(١) أخرجه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة كتاب أبواب المساجد . باب الحدث في المسجد .جـ ١ ص ١٧١ .

(٢) بهجة النفوس جـ١ ص ص ١٩١ -١٩٢ .

ترقى إلى ما هو أعلى منه ، فمن دام على التأدب في المقام الذي أقيم فيه ترقى في المقامات حيث شاء الله تعالى عدا مقام النبوة التي لا مشاركة للغير فيها بعد النبي ﴿ﷺ﴾[١] . وهذا يعني أن الترقي في المقامات مهما بلغ العبد فيه لن يصل إلى مقام النبوة أبدا ، وذلك لأن النبوة منحة واصطفاء من الله تعالى ، وليست تنال بكثرة عبادة أو سمو في مقامات الوصل والقرب[٢] .

وإذا أتم العبد ذلك كله بأن سدد في العبادة وقارب ، وداوم على الطاعات ، وأحكم الآداب فله البشارة بالترقي بنص قوله ﴿ﷺ﴾" وأبشروا " الذي يتخذه الحافظ ابن أبي جمرة شاهدا لأهل السلوك في قولهم : (من بلغ بعض المنازل فدام عليه بأدبه فإنه يترقى إلى ما هو أعلى منه ، فما دام على هذه

---

(١) انظر : بهجة النفوس جـ ١ ص ١٠ بتصرف .

(٢) عقيدة أهل السنة أن النبوة غير مكتسبة بل هي فضل من الله تعالى ، يقول الإمام اللقاني في أرجوزة التوحيد :

ولم تكن نبوة مكتسبة *** ولو رقى في الخير أعلى عقبة

بل ذاك فضل الله يؤتيه من *** يشاء جل الله واهب المنن

يقول الإمام البيجوري :(قوله: ولم تكن نبوة مكتسبة) أي لا يكتسبها العبد بمباشرة أسباب مخصوصة كملازمة الخلوة والعبادة وتناول الحلال كما زعمت الفلاسفة ؛ فالذي ذهب إليه المسلمون جميعاً أن النبوة خصيصة من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها. ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا، وهكذا الرسالة، لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ) . انظر : شرح جوهرة التوحيد ص ٢١١ .

الحال لايزال في ترق حتى يبلغ غاية المنازل الرفيعة عملا منهم على مقتضى البشارة) [١].

الشرط الخامس : استصحاب العمل وترك الالتفات

يقول الحافظ ابن أبي جمرة : (في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾[المدثر : ٦]دليل لأهل الصفة في قولهم باستصحاب العمل وترك الالتفات ودوام الإقبال والحضور ؛ لأن النظر إلى كثرة العمل يحدث الكسل ، فكيف به إذا كان النظر لغير العمل ؟ ، ومنه قولهم : الوقت سيف ، يريدون به : اقطع الوقت بالعمل لئلا يقطعك بالتسويف ؛ ولأن الالتفات بالحظوظ وكثرة العمل وغير ذلك هلاك ، والسالك إذا التفت إلى الهلاك كان هالكا) [٢].

وأعظم أنواع هذا الالتفات ما كان في محل القرب والمناجاة وهو الصلاة ، فلا يلتفت العبد إلى شيء آخر غير ربه سبحانه وتعالى ، فلا يلتفت إلى شيطان ولا إلى بشرية ولا إلى أعراضها بل يقبل بكله على الله تعالى . ويستدل الحافظ ابن أبي جمرة لهذا المعنى بقوله﴿ﷺ﴾لمن اشتكى أنه يخيل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة فقال : (لا ينتقل أو لا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا) [٣].

---

(١) انظر : بهجة النفوس جـ ١ ص ٧٦ .

(٢) انظر : بهجة النفوس جـ ١ ص ٢٤ .

(٣) أخرجه الإمام البخاري. كتاب الوضوء. باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن. جـ ١ ص ٦٤.

فيقول : (هنا إشارة لطيفة وذلك أنه لما كان العبد قد توجه إلى الحضرة العلية فلا يلتفت إلى البشرية وعوارضها فإنه خال في الحال فإن جاءه أمر متحقق فهو حكم رباني واجب الامتثال له) [١]. (وفيه من الإشارة لأهل القلوب ألا يلتفتوا إلى الشكوك ولا إلى العوارض لا قليلا ولا كثيرا) [٢].

وألا يلتفتوا إلى الشيطان ووسوسته ، وقد حذر ﷺ من ذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري بسنده عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ (إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فإذا قضي أقبل فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضي أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول اذكر كذا وكذا حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعا فإذا لم يدر ثلاثا صلى أو أربعا سجد سجدتي السهو)[٣] .

يقول الحافظ ابن أبي جمرة: (فيه دليل لأهل الصوفة لأنهم أخذو بدوام الاشتغال وعدم الالتفات إلى حديث النفس وغيرها ؛ لأن هذا المصلي ما طرأ عليه النسيان إلا من جهة التفاته إلى حديث العدو ، وبما ذكره به وميله إليه) [٤].

---

(١) بهجة النفوس جـ ١ ص ١٥٢.

(٢) نفسه جـ ١ ص ١٥٣ .

(٣) أخرجه الإمام البخاري . كتاب بدء الخلق . باب صفة إبليس وجنوده . جـ ٣ ص ١١٩٦ .

(٤) بهجة النفوس جـ ٤ ص ٢٩ .

الخاتمة

وبعد هذه النظرة المعرفية في موقف الحافظ ابن أبي جمرة من التصوف يتضح الآتي :

١- من خلال قراءة الحافظ ابن أبي جمرة في التصوف الإسلامي قراءة مجملة يظهر أنه اتبع في بيان المسائل المنهج التالي :

أ – بيان المسألة المرادة في السنة الشريفة والتدليل على مشروعيتها إجمالا .

ب – بيان حسن عمل الصوفية المتشرعين في هذه المسألة ، وأن أحاديث السنة الشريفة تشهد لهم .

جـ – بيان الشروط الواجب توافرها في المسألة المراد بيانها حتى تصبح على السنة .

٢- أكد الحافظ ابن أبي جمرة مرارا على وجوب التمسك بالكتاب والسنة ، وجعلهما حكَمًا في بيان مسائل التصوف ، وسبيلا لتمييز الصادق من المدعي . ولا عجب في ذلك فالحافظ شيخ في السنة وأحد المدافعين عنها .

٣- فرق الحافظ ابن أبي جمرة بين الصادقين والأدعياء في التصوف باستخدام أسماء مختلفة تدل على كل طائفة دون الأخرى .

٤- اهتم الحافظ ابن أبي جمرة ببيان حسن طريقة أهل التصوف في التربية ،

وأكثر من الاستدلال على ذلك من السنة المطهرة ، مع التأكيد على ضرورة كونها على الكتاب والسنة .

٥- وافق الحافظ ابن أبي جمرة المحققين من مشايخ التصوف في نقد الأقوال الشنيعة المنسوبة للتصوف وليست منه ، فوافق نقده نقدهم ، وذلك راجع لوحدة المسلك ووحدة الغاية في النقد .

٦- أكد الحافظ ابن أبي جمرة على ضرورة سبق التخلي على التحلي حتى مع كونه غير مكتسبا ، وأنه على قدر التخلي يكون التحلي .

٧- تكلم الحافظ ابن أبي جمرة عن الخواطر وأقسامها ، وأنه لابد من التسلح بميزان الكتاب والسنة ، حتى يستطيع المريد تمييز هذه الخواطر ، فكل خاطر لا يشهد له الكتاب والسنة فهو خاطر نفسي أو شيطاني وإلا فهو رباني أو ملكي .

٨- الترقي في المقامات السنية هو غاية السالك إلى الله تعالى ، والحافظ ابن أبي جمرة يرى أنه لابد في الترقي من شروط حتى يؤتي ثمرته ، وأهم هذه الشروط هو الأدب فبالأدب تنال المقامات .

وفي النهاية أسأل الله تعالى التوفيق والسداد والقبول ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

أهم المراجع

١- القرآن الكريم

٢- السنة النبوية

٣- : آداب المريدين : أبو النجيب السهروردي تحقيق : الدكتور / عاصم الكيالي . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنانط ١ ١٤٣٦هـ، ٢٠٠٥م .

٤- أربع رسائل في التصوف للقشيري . د/ قاسم السامرائي. المجمع العلمي بالعراق ١٩٦٢م .

٥- الأعلام : خير الدين الزركلي . دار العلم للملايين –بيروت–لبنانط ١٥/ ٢٠٠٢م .

٦- الاعتصام : الإمام الشاطبي . تحقيق: سليم بن عيد الهلالي .دار ابن عفان، السعودية . ط ١ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

٧- التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : الأستاذ الدكتور / عبدالله الشاذلي : مكتبة الأزهر الحديثة –طنطا ٢٠٠١م .

٨- التعرف لمذهب أهل التصوف : أبو نصر الكلاباذي. تحقيق أرثر جون أربري . مكتبة الخانجي–القاهرةط ٢ ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م .

٩- التعريفات : الجرجاني . تحقيق : إبراهيم الإبياري . دار الكتاب العربي . بيروت –لبنان ١٤١٥هـ

١٠- الجهود الفكرية لتصحيح الطريق لدى الصوفية د/ عبدالمنعم البرلسي .

رسالة دكتوراة .

١١- الرسائل والمسائل : الإمام ابن تيمية . تحقيق :السيد محمد رشيد رضا الناشر : لجنة التراث العربي . بدون تاريخ .

١٢- الرسالة القشيرية : الإمام أبو القاسم القشيري . تحقيق الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / عبدالحليم محمود ، الدكتور محمود بن الشريف . مؤسسة دار الشعب ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م .

١٣- الزهد الكبير للبيهقي . تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت –لبنان .ط١ ١٤٠٨هـ– ١٩٨٧م .

١٤- العبر في خبر من غبر : الحافظ الذهبي . تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية –بيروت .

١٥- الغنية لطالبي طريق الحق الشيخ عبدالقادر الجيلاني .تحقيق : أبو عبدالرحمن صلاح عويضة . دار الكتب العلمية . ط ١ ١٤١٧هـ . ١٩٩٧م .

١٦- الفتح الرباني : الشيخ عبدالقادر الجيلاني . قدم له : خليل الميسي . دار الريان للتراث . بدون تاريخ .

١٧- الكليات : أبو البقاء الفكومي. تحقيق عدنان درويش –محمدالمصري .مؤسسةالرسالة–بيروت ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م .

١٨- اللمع : السراج الطوسي . تحقيق : الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور /

عبدالحليم محمود ، طه عبدالباقي سرور . دار الكتب الحديثة بمصر .مكتبة المثنى ببغداد . ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م .

١٩- المقدمة في التصوف : أبو عبدالرحمن السلمي . تحقيق د/ يوسف زيدان . دار الجيل .بيروت–لبنان . ط١ ١٤١٩هـ .١٩٩٩م .

٢٠- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه . الحافظ ابن حجر العسقلاني :.تحقيق : محمد علي النجار –عليمحمدالبجاوي . دارالكتبالعلمية .بيروت–لبنان .

٢١- تقريب التهذيب . الحافظ ابن حجر العسقلاني. تحقيق / محمد عوامة دار الرشيد –سوريا ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م .

٢٢- تفسير التحرير والتنوير . الطاهر بن عاشور .دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م

٢٣- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس .الحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي :تحقيق عزت العطار الحسيني . مطبعة المدني . القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٢٤- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . الإمام السيوطي . ط ١ دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي الحلبي –القاهرة .

٢٥- حاشية على مختصر ابن أبي جمرة . الشيخ الشنواني . مطبعة مصطفى البابي الحلبي– القاهرة ١٩٢٠ م .

٢٦- داعي الفلاح : الشيخ / محمد المرصفي :. تحقيق : د/ عاصم الكيالي . ملحق بكتاب آداب المريدين للسهروردي . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنانط ١ ١٤٣٦هـ، ٢٠٠٥م .

٢٧- دراسات في التصوف الإسلامي :أ.د/ فتحي الزغبي . مكتب الأشول للطباعة . طنطا –مصر . ١٤١٨هـ .١٩٩٨م .

٢٨- سنن ابن ماجة . تحقيق د/ محمد فؤاد عبدالباقي . دار الفكر بيروت – لبنان

٢٩- سنن الترمذي . تحقيق الشيخ أحمد شاكر وآخرون . دار إحياء التراث العربي . بيروت –لبنان .

٣٠- شرح جوهرة التوحيد . الإمام البيجوري . تحقيق الأستاذ الدكتور / علي جمعة . دار السلام –القاهرة . ط ١ . ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م .

٣١- شرح صلاة القطب ابن مشيش : الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني. تحقيق : العمراني الخالدي عبدالسلام . دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء – المغرب . بدون تاريخ .

٣٢- شعب الإيمان . الإمام البيهقي . تحقيق محمد السيد بسيوني زغلول . دار الكتب العلمية .بيروت–لبنانط ١ ، ١٤١٠هـ .

٣٣- صحيح البخاري . تحقيق : د. مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير ، اليمامة –بيروتالطبعةالثالثة، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م .

٣٤- صحيح مسلم .دار الجيل بيروت دار الأفاق الجديدة ـ بيروت–لبنان .

٣٥- طبقات الأولياء : ابن الملقن . تحقيق نور الدين شريبة . مكتبة الخانجي– القاهرةط ٤. ١٤١٥هـ. ١٩٩٤ م.

٣٦- طبقات الصوفية : أبو عبدالرحمن السلمي. تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنان . ط ١ ١٤١٩هـ١٩٩٨م .

٣٧- قضية التصوف : المنقذ من الضلال . الإمام الأكبر الدكتور / عبدالحليم محمود . دار المعارف الطبعة الثالثة .

٣٨- قواعد التصوف: الشيخ زروق الفاسي. تحقيق : عبدالمجيد خيالي . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنان ط٢ ١٤٢١هـ . ٢٠٠٥م .

٣٩- كشف المحجوب :الهجويري . دراسة وترجمة وتعليق الدكتورة / إسعاد قنديل . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٤ هـ،١٩٧٤م .

٤٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة . مكتبة المثنى –بغداد . ١٩٤١م .

٤١- لسان العرب : ابن منظور . دار صادر بيروت –لبنان .

٤٢- معجم المؤلفين : عمر كحالة . الناشر مكتبة المثنى – بيروت دار إحياء التراث العربي بيروت .

٤٣- معراج التشوف إلى حقائق التصوف : الشيخ أحمد بن عجيبة . تحقيق د / عبدالمجيد خيالي . مركز التراث الثقافي المغربي – الدار البيضاء –

المغرب . بدون تاريخ .

٤٤- مفاتيح الغيب . الإمام الفخر الرازي. دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م ط١

٤٥- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح : الإمام / ابن عطاء الله السكندري . تحقيق : محمد عبد السلام إبراهيم. دار الكتب العلمية . بيروت -لبنان .

٤٦- موطأ الإمام مالك .تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي . مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان .الطبعة الاولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٤٧- نعت البدايات وتوصيف النهايات : القطب ماء العين ابن القطب محمد بن الفضل ابن مامين. دار الفكر بيروت -لبنان . بدون تاريخ .

فهرس الموضوعات